مخمّس الشيطان

د. غفار محمد

مخمّس الشيطان

رواية من أدب التشويق و الخيال

د.غفار محمد

مخمس الشيطان ..

الإهداء :

إلى كل من كسره شيطانه و سقط .. انهض فلا تزال أمامك حركة أخرى ..

مخمس الشيطان ..

أنت هنا في عالم الخيال، وكل
تشابه مع الواقع في الأسماء و
الأحداث و كثير من الأماكن هو
محض صدفة ..

مخمس الشيطان ..

محتوى الكتاب :

- لن أسجد لآدم ..
- كش مات ؟ ..
- مخمس الشيطان ..
- رجل الدمى ..
- الشهرة : بوابة إلى الجحيم ..
- تاج النرجس ..
- جسد للإيجار ..
- مخدر الضمير ..
- مهام الماجوس ..
- عظات في وجه العاصفة ..
- عندما يقلب الملاك الرقعة..
- تغيير البوصلة ..
- ولادة جديدة ..

لن أسجد لآدم

الكون الأكبر (جنان الله)

بعيد الخلق الأول ..

كن يا كون فكان ..

في البدء، لم يكن هناك سوى الصمت... صمتٌ مطلق، نقيّ، لا يعكّره صوت ولا ظل. ثم تنفّست الإرادة الإلهية، وقالت للعدم : "كن."

فانفلقت السكينة الكبرى عن نور، لا يشبه شيئًا، بل هو كل شيء. انفجر الوجود كالقصيدة الأولى، وتفتّحت السماوات كسُحب من نورٍ سائل، تهمس لذاتها : نحن خلقنا بنظرة.

جُعلت الأرض مهادًا، والجبال أوتادًا، والبحار بحورًا من الأسرار. نُثرت النجوم كأنها حروف على صفحة سوداء، تُنذر وتُبشّر وتُجَمِّل وجه السماء.

ثم، في لحظة اختارها الله، صنع الإنسان...

نفخ في طينٍ صبورٍ من روحه، فانتفض التراب حيًّا. لم يكن خلق **آدم** مجرد بعثٍ لجسد، بل إعلانٌ لمقام. رفعه الله وعلّمه الأسماء، لا كمعجمٍ من الكلمات، بل كمفاتيح لفهم الوجود. صار آدم حاملًا سرّ اللغة، وفهم التكوين، وشاهدًا على أن الخلق ليس مادة فحسب، بل وعي، وحرية، وذوق.

وعجبت الملائكة... كيف لهذا الكائن الهشّ أن يُمنَح سرّ التسمية؟ أن يُؤتَمن على الكلمة، وهي أول الخلق وآخره ؟

لكن الله يعلم... وهم لا يعلمون.

عندما نطق الغرور لأول مرة ..

وحين اكتمل التكوين، أمر الله جنده من النور أن يسجدوا لآدم. لم يكن سجود عبادة، بل سجود إقرار، اعتراف بأن الله نفخ في هذا الكائن من سره، فاستحق مقام التكريم.

فخرّت الملائكة ساجدةً، لم تتردّد، لم تجادل، لأنها لم تعرف الغلّ ولا الكبر.

إلّا واحدًا... لم يكن من جنسهم، بل كان من نار.

إبليس، المارد المكنون في طهرهم، وقف كالعتمة في وسط الضوء، نافرًا، مشتعلاً بغرورٍ قديم. نظر إلى الطين باحتقار، إلى آدم بعيون ملأى بالاشمئزاز. قال في سرّه :

= أنا خيرٌ منه... خُلقت من نار، وخُلق من طين.

لم يكتفِ بالرفض، بل زأر به. كبرياؤه كان صوته، واحتقاره كان منطقه. رأى في أمر الله امتحانًا لكبريائه لا طاعةً للخالق.

فتورّط في أول عصيان، أول تحدٍّ، أول سقوط.

وهنا، تزلزلت السموات، وارتجفت الأرض... فالغطرسة، حين تُقال في حضرة الرب، تكون خيانةً كونية.

السقوط من النور ..

لم يحتج الله إلى صراخٍ أو سيف. كانت كلماته كافية. قال له :

= فاخرج منها فإنك رجيم.

فانخلع إبليس من رحمته كما يُخلَع النور عن العتمة.

سقط من مرتبةٍ لم يكن ليحلم بها، إلى قاعٍ لم يكن يتخيّله. لم يُطرد من الجنة فقط، بل طُرد من القرب و من الرحمة.

لم يعد له نصيب في النور، ولا في الأنس، ولا في التجلّي.

كان الخروج أبدياً. لم يكن مؤقتًا، ولم تُفتَح له بوابة توبة. لأن عصيانه لم يكن خطأً، بل اختيارًا. لم يكن ناتجًا عن ضعف، بل عن كِبر.

وهكذا، سار إبليس خارجًا من الملكوت، يتآكله ندمٌ لا يشبه التوبة، وغضب لا يعرف الهدوء، ونارٌ لم تعد عبادة، بل صارت حقدًا.

خرج مطرودًا، ملعونًا، ولم يعد يُدعى من جند السماء... بل صار أمير الغواية.

القسم الأسود ..

وقف إبليس عند مشارف الخلق، ينظر إلى آدم كعدوٍّ أزليّ. لم يعد يراه ككائن، بل كسببٍ لسقوطه. نادى في عتمته، وصرخ أمام العرش بصوتٍ من دخان :

= لأغوينّهم أجمعين... لأزيننّ لهم الأرض، لأجعلنّهم ينسونك، ويتّبعونني، ويعبدون شهواتهم، ويكفرون بأسمائك... وسأحملهم معي، قطرة قطرة، نحو الهاوية .. نحو ظلام أسود لا قاع له ..

أسّس مملكته بين الوسوسة والإغراء. فتح باب الشهوة، ونفخ في نار الحسد، وجعل الكبرياء تاجًا لكل من كفر. لم يعد يختبئ، بل بنى عرشه على الوهم، وملأ قارات الأرض بوعوده الكاذبة.

قال للبشر : أنتم آلهة أنفسكم، لا ربّ فوقكم.

وقال لهم : الحرية أن تفعل ما تشاء، لا ما يُطلب منك.

وقال لهم : الشرّ ليس شرًّا، بل خيار... والحق ليس مطلقًا، بل رأي.

هكذا انطلقت فوضى المعنى، وصار إبليس معلّمًا للضلال، وناسكًا في معبد الهوى.

لكنه نسي... أن الله لا يُغافَل، وأن النور لا يموت، وإن طال عليه ليل.

قبلت التحدّي ..

ثم جاءه صوتٌ لا يشبه أصوات الخلق، بل يشبه الوجود حين يتكلّم. كان صوت الله، ساكنًا كقدرٍ لا يُردّ، وعاليًا كأمرٍ لا يُناقش. قال له :

= اذهب... فمن تبعك فإن مصيره جهنم، جزاءً وفاقًا. أما عبادي الصالحون، فلن يكون لك عليهم سلطان.

كان هذا هو العهد. أن الأرض ستبقى ساحة اختبار، لكن النتيجة ليست بيد إبليس. فالخيار للإنسان، والمصير معقود بإرادته. الله لا يمنع البلاء، لكنه يمنح المنجى.

قال له الرب :

= إني أعلم ما لا تعلم. وسأبعث فيهم رسلًا، وأنزل كتبًا، وأضع نورًا في القلوب، وأرسل في كل زمنٍ من يُحيي الرسالة. لن تكون وحدك، ولن يكونوا وحدهم. وسأبقى، رغم غوايتك، أقرب إليهم من حبل الوريد.

وابتسمت السماء، لا استهزاءً، بل يقينًا... أن إبليس مهما علا، فلن يملك سوى الوهم.

وأن في كل جيل من يرفض تكبره في السجود لآدم ، ويعود... إلى السجود الحق.

وهكذا، بدأت الحكاية...

حكاية الإنسان بين غوايةٍ تهمس، ورحمةٍ تنتظر.

وما بين الاثنين، يمشي القلب... إلى حيث يختار.

كش مات ؟..

صالة الانعكاس / متحف اللوفر

باريس 2035 م ..

.في ردهةٍ منسية من متحف اللوفر، خلف أسرار دا ڤنشي و صفرة فان جوخ و تكعيب بيكاسو و مدرجات الرخام التي تعجّ بالحشود المتلهفة، تقبع صالة صغيرة أشبه بمعبد باطني؛ ضوءها باهت، وجدرانها موشومة بعشرات اللوحات التي يعلوها الصمت كغطاءٍ قديم من الغبار المقدّس. تلك الصالة تُعرف باسم **صالة الانعكاس** ، ليس لأن فيها مرايا، بل لأن كل لوحة فيها تفرض عليك أن تنظر إلى داخلك قبل أن تفهم ما تراه خارجك.

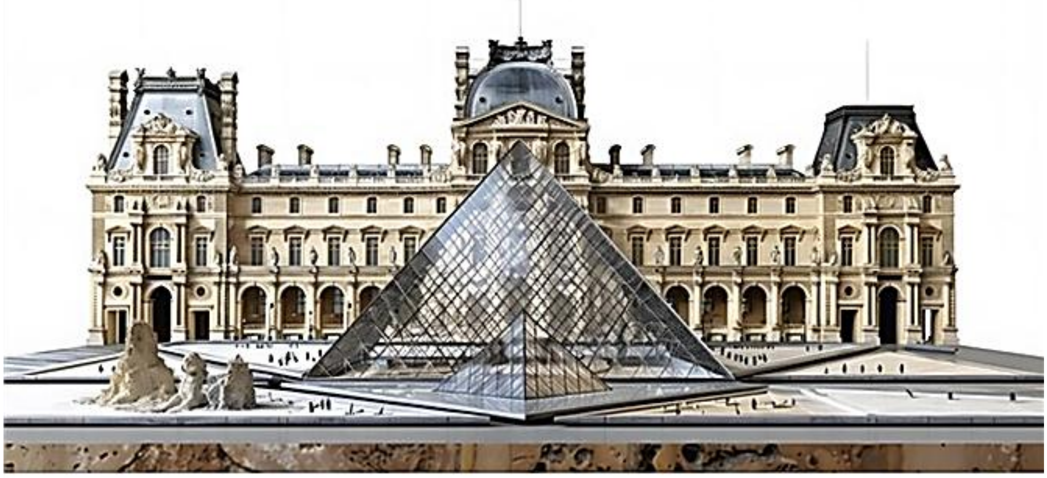

وقف المرشد السياحي **رينيه**، رجل فرنسي خمسيني بوجه نحته الزمن بالحكمة و التجربة ، وبدلة رمادية مطوية بعناية ترزي ايطالي فوق جسد نحيل أنهكه التجول في ردهات المتحف في دورات أزلية أشبه بعقدة فالكوت النوردية ، وقف وسط الزوّار الذين التفوا حوله كألسنة نار صغيرة حول مشعل، وقال بصوته العتيق الذي يشبه رنين كأس بلّور :

= ها قد وصلنا إلى لوحة جديدة في جولتنا السياحية على لوحات متحف اللوفر في قلب باريس .. تحفة عظيمة لفنان عبقري ..

تنهد بصوت خافت، ثم أشار بإصبعه نحو لوحة معلّقة على الجدار الجنوبي، وقد التفّ حولها إطار خشبي داكن بلون دم العنب، يُفضي إلى عالم من المعركة الصامتة.

تدخل أحد الزوّار شاب في الثلاثينات، يحمل في عينيه مزيجًا من الدهشة والفضول ، في الحديث قبل أن يكمل :

= أظن أنها **لوحة كش مات** أيها المرشد !

ابتسم المرشد بخفة، كما لو أنه استعاد لحظة مسروقة من ماضيه، ثم قال :

= أصبتَ.. وهذه اللوحة هي لفنان ألماني من القرن الثامن عشر يدعى **فريديريك ريتز**. وقد صوّر فيها كما ترون بأنفسكم لاعبي شطرنج. الأول هو **الشيطان**، يبدو مفعمًا بالثقة والغرور من الفوز بسبب سيطرته على الرقعة، واللاعب الثاني **إنسان** يبدو عليه اليأس..

توقف لحظة، ونظر إلى اللوحة، ثم أكمل :

= لأن الشيطان، الذي يبدو منتصرًا في اللوحة، سوف يربح روح ذلك الرجل ويقيدها في حال هزيمته.. وبين اللاعبين يقف **ملاك**

يراقب المعركة على الرقعة بصمت. يمكن باختصار وصف اللوحة بأنها إعلان انتصار الشيطان بدهائه على الإنسان... لننتقل إلى اللوحة التالية.

تحركت المجموعة بخطى رتيبة، تتأمل وتتمتم، لكن أحدهم بقي جامدًا، كجذر غارق في التراب، لا تهزه رياح ولا تصرفه الأضواء المتغيرة. كان شاباً طويل القامة، يرتدي معطفًا أزرقَ قاتمًا، بعينين تشبهان حجارة الشطرنج، تلمعان بتفكير داخلي لا يهدأ. كان اسمه **جوليان رينارد** ، بطل عالمي سابق في لعبة الشطرنج، رجل قرأ الحياة كما يقرأ لاعب محترف رقعةً معقدةً تحوي أكثر من احتمال واحد للنجاة.

نظر إليه المرشد بدهشة ، بعد أن لاحظ تخلّفه عن الركب، وقال :

= هيا سيدي، سيفوتك شرح اللوحة القادمة.

لكن جوليان لم يتحرّك. ظل يحدّق في اللوحة كأنها تشهق أمامه، كأنها تحاول أن تقول شيئًا عجزت عنه الفرشاة.

= من فضلك، حضرة المرشد، هلا عدت قليلاً إلى لوحة كش مات ؟

تفاجأ المرشد من هذا الطلب الغريب، لكنه عاد على مضض، ربما من باب المجاملة أو بدافع الفضول الذي لا يموت لدى الأدلاء المخضرمين.

= ماذا هنالك سيدي ؟

قال جوليان بنبرة هادئة، لكنها مشبعة بقناعة أقرب إلى الوحي :

= حضرة المرشد، يجب إمّا تغيير اسم هذه اللوحة، أو إزالتها من المتحف...

ارتفع حاجبا المرشد، بينما التفت أحد الزوّار القريبين بفضول ليسمع ما سيقال، ثم تابع جوليان :

= أنا كلاعب شطرنج محترف، أرى أن هناك خطأ فادحًا في هذه اللوحة. نظرة واحدة على الرقعة تكشف لي أن الملاك الواقف بين اللاعبين لم يتدخل بعد.. لكنه ليس مجرد مراقب. بإمكان الإنسان في اللوحة أن ينجو من الهزيمة إن عرف موضعه الحقيقي، وإذا حرّك الملاك حجراً واحداً فقط، ستنقلب النتيجة.. سيُهزم الشيطان وينجو الإنسان.

صمتٌ مهتزٌ خيّم في الصالة.

ثم رفع جوليان عينيه، لا نحو اللوحة، بل نحو السماء غير المرئية فوق القبة الهرمية الزجاجية ، وقال :

= إن عنوان هذه اللوحة يروّج لفكرة انهزامية، يهمس للناس أنه لا أمل، أن الشيطان غالب لا محالة .. لكنها كذبة .. الإنسان المؤمن بالله، الواثق بنفسه، لن ينهزم .. ما دام الملاك واقفًا، هناك فرصة.. كل مباراة لا تنتهي حتى تُحرّك آخر قطعة و يخرّ الملك ساقطاً ..

هزّ المرشد رأسه بدهشة .. كان وجهه قد فقد لونه، كأنّه التقى للتوّ بحقيقة لم يتوقعها في روتين يومه المعتاد حيث الإنصات الغارق بالطاعة هو الحدث المسيطر على الزوار ..

= مذهل.. ومعبر للغاية.!!

ثم ساد صمت بينهما. الزوار تابعوا رحلتهم، لكن المرشد بقي للحظات. نظر إلى اللوحة مرة أخيرة، فرأى فيها ما لم يره من قبل. كأن ضربات الريشة التي رسمت الشيطان لم تكن سوى غبار على سطح مرآة .. أما الأمل، فقد كان مختبئًا في الزاوية، ينتظر من يراه.

وفي تلك اللحظة، لم تعد لوحة كش مات إعلان هزيمة، بل شهادة حية على أن كل يأس فيه أمل مخبوء، و كل نفق في نهايته بصيص نور يخبرك أن تنهض و تستمر ، وكل رقعة تحمل إمكانيات لا يُدركها إلا من لا يستسلم.

مخمس

الشيطان

مينوسوتا / كنيسة سانت بول الكبرى

عشية عيد الميلاد .. 2035 م ..

في أقصى الشمال الأمريكي، حيث تهبط الثلوج لا كنعمة، بل كاختبارٍ للجلَد والروح، تتربع **كنيسة سانت بول الكبرى** كما تتربع قصيدةٌ دينية في قلب كتابٍ دنيوي على ضفاف نهر الميسيسيي الحالمة. ليست صرحًا من حجرٍ فحسب، بل بئرًا غائرة في الذاكرة الجمعية، موشومةٌ بالتراتيل، ودموع الاعتراف، وهمسات التوبة التي التصقت بجدرانها مثل الطلاء.

عند اقترابك منها، لا تسمع جرسها فقط، بل تشعر أن الأرض من تحتك بدأت تُصلّي. القبة النحاسية العالية تشبه جفن عين مغمّضة نصف إغماضة، متأملة، حذرة، ونافذة الزمان مشروعة فيها على أبدية لا توقيت لها، و أبراجها الأربعة تخترق السماء الرمادية كأذرع تبتهل للسماوات .. نوافذها الزجاجية الملوّنة تروي مشاهد من العهدين القديم والجديد، لكنها في ليالي الشتاء تتحوّل إلى لوحاتٍ خرساء تنزف ألوانًا خافتة نحو الداخل، كأنّها تصلي في صمت. في الداخل ،الرخام الذي يكسو الأرضية ليس مجرّد خامة،

بل جلدٌ ممتد لظهر ملاكٍ نائم، و الأيقونات المعلقة لا تروي قصة قديسين فقط، بل تضيء انكسارات الإنسان، وتمررها بلونٍ خافت إلى صدور المصلين.

تلك الليلة...

ليلة الميلاد المجيد، لم تكن كسائر ليالي العيد. بدا العالم من الخارج وكأنه نُفض عن أكتافه الدفء، وارتدى معطفًا من صقيعٍ جاف. الشوارع كانت مقفرة، والثلج يتساقط بكثافة ناعمة كعقابٍ إلهي مغلفٍ بالحنان. أما داخل الكنيسة، فقد تراصّ الناس كما تتراص خراف التوبة قرب مذبح الغفران، وكلٌّ منهم يحمل في قلبه شتاءً خاصًا.

في مقدمة المذبح، بين الشموع والصلبان والموسيقى التي تخرج من أنابيب الأرغن كأنها تنهيدة ملاك مريض، وقف القس **باتريك هارولد.**

كان يشبه في وقفته شجرة زيتون ضربتها البروق، لكنها ما زالت صامدة. رجل لم يعد عمره يقاس بالسنوات، بل بالأرواح التي مرت من أمامه وسقطت، أو صعدت. بشرته رقيقة كالورق، وصوته خشن كالمزمور الأول حين يُتلى تحت المطر. كان يرتدي عباءة سوداء مطرزة بخيوط ذهبية باهتة، ولكنّ الهيبة لم تكن في اللباس... بل في النظرة.

نظرة كأنها تقول :

أنا رأيت الله في ظلال الجحيم... فماذا رأيتم أنتم ؟

وقف صامتًا طويلًا قبل أن يبدأ عظته. لم يكن الصمت فراغًا، بل حضورًا طاغيًا، كأنّ صوتًا غير مسموع قد بدأ يتكلّم من خلاله. رفع نظره ببطء إلى المصلين، وقال بنبرة تشبه طرق المطرقة

على نعش قديم :

= أعلم أنكم تنتظرون حديثًا عن المحبة... عن المخلص الذي ولد في المغارة ، عن النجوم والمجوس والرعاة... لكنني الليلة لن أُحدّثكم عن النور. بل عن الظل الذي نحمله جميعًا في قلوبنا.

سُمع صوت ارتجافة في الصفوف الخلفية.

= عظتي هذه بعنوان: **مخمس الشيطان** .. فنحن في زمن أصبحت الغلبة فيه - كما ترون بأم العين من حولكم - للشرير اكثر مما لمخلصنا يسوع ، و الذي لن يخلصنا الا اذا فهمنا عدونا الهارب من الجحيم اكثر .. فأول خطوة للانتصار في معركة الحياة هي **افهم نفسك** ، و الثانية التي تليها مباشرة ، **اعرف عدوك** .. و الحقيقة أن الخطوتين متماهيتان مع بعضهما ..

سكت ثانية ثم تابع ..

= إنّ أغلب الديانات الأرضية و جميع الديانات السماوية وصفت حياة البشر كصراع بين الخير و الشر ، فيرمز للخير عادةً بالإله ، أما الشرّ فيرمز له بعدة طرق حسب الحضارة السائدة ، فهو :

- إله أيضاً كحال الإله **أهرمان** في الديانة الزرادشتية الذي يواجه إله الخير **أهورا مازدا** ، و الإله **ست** عند الفراعنة الآكل الظلامي لأخيه أوزيريس ...

- مخلوق تمرد على الإله الخالق و وعده بإغواء خلقه عن عبادته كحال **إبليس** عند المسلمين و **الشرير** عند المسيحيين و **الخصم** عند اليهود ..

- النفس الأمارة بالسوء التي تغري الإنسان كي يعصي الآلهة فيستحق عقابها كما هو الحال عند الإغريق مثلاً ..

و أسماء الشيطان تتنوع بتنوع الحضارات فهو إبليس ، الشرير ، لوسيفر ، عزازيل ، بافوميت ، بعل زبول ، مفستو فيلس ، ساتان ، عفريت الجنّ و غيرها ..

و الشيطان أياً كان اسمه أو تكوينه من إله أو مخلوق أو فكرة فقد أثبت قوته عبر الزمن و كثيراً ما يكسب معركته مع البشر ..
لماذا ؟ لعدة أسباب لعلّ أهمها :

- خياراته أكثر من خيارات الإنسان ، فللخطأ أوجه لا نهائية أما الصواب فله وجه وحيد ..
- لا يوجد رادع أخلاقي أو خطوط حمراء تحدد حركاته ..
- إتقانه للعبة الضياع بين (**الماضي**) بذكرياته الأليمة و
- خسائره و فشله ، و (**المستقبل**) المبهم المخيف غير المضمون .. فينطحن الإنسان ضعيف الإيمان بين مطرقة الوقوف على الأطلال و التأسف على ماضٍ لن يعود و بين سندان القلق من مستقبل مجهول قد يعيد إحياء الماضي بكوارثه مجدداً ، فيغفل الإنسان عن أهم ثروة يملكها في حياته أي (**الحاضر**) ماضي الغد و محدد هيئة المستقبل الآتي ،فيعتكف عن العمل و الإنجاز و يستسلم لواقعه الكئيب دون ردة فعل ..
- يعزف بحرفية على أوتار **الغرائز و الحاجة و الطموح** وهذا هو مثلث برمودا الذي يختفي فيه ضمير الإنسان دون أثر ..
- أتباعه هم الأكثر في كل زمان و مكان بسبب المغريات التي يقدمها ، مما يجعل طريق الحق و الصواب الوعر بالأساس شحيحاً بروداه مما يصعّب عليهم المعركة أكثر ..

و بسبب الأسباب الصريحة و القوية السابقة و كثير غيرها نجد للشيطان أتباعاً بالملايين عبر صفحات التاريخ ، بل وصلت الحال ةببعضهم إلى عبادته و تقديسه دوناً عن الله خالقهم ، حتى أنهم

يمارسون طقوسا خاصة بهم و يروجون لرموز و قرائن شيطانية مميزة .. بل إنهم أسسوا لعبادة الشيطان كنيسة خاصة في مدينة **سان فارانسيسكو** في **كاليفورنيا** .. و يا للعار أن تصبح الخطيئة عقيدة يتباهى بها البشر ..

فلنتذكر جميعاً أن الشيطان فكرة لا شخص ، و كي نفهم طبيعة الشيطان أكثر ، علينا أولاً أن نفهم طبيعة الإنسان .. فالإنسان يأتي إلى هذه الحياة صفحة بيضاء طاهرة كالثلج و هذا ما ندعوه براءة الأطفال ، لكن ما أن يشبّ هذا الطفل قليلاً و يتعرف على إغواءات الدنيا و متعها حتى يتنازل عن براءته و إرثه الأخلاقي النظيف و ينغمس في الملذات بأشكالها المختلفة ..

هل يذكركم هذا بشيء ؟

بالضبط .. بوصف إبليس في الأديان ، فقد كان ملاكاً من ملائكة الله يعبده ، ثم تمرد عليه و أسس امبراطورية من الفسوق خاصة به لإغواء البشر ..

بمعنى آخر .. الشيطان ليس بالضرورة شخص آخر يوسوس للإنسان .. بل الشيطان يكمن داخل الإنسان بالأساس ،و يعيد كل إنسان قصة حياة إبليس في حياته نفسها بالتحول من **الطفل الملاك** إلى **الشاب الشيطان** ، قبل أن يهديه الله إلى صراطه المستقيم مجدداً فيستعيد طهارة الطفولة ، و هذه الفكرة يمكن تجسيدها بشعار عبدة الشيطان (النجمة الخماسية المقلوبة) ..

إذ يجسد كل رأس فيها ركن من أركان سيطرة الشيطان على الإنسان :

أولاً تأتي **الغريزة** ، و هي الركن الأخطر و الأكثر سيطرة على الإنسان ، فالإنسان الذي لا يتحكم بغرائزه و يوجهها بعقله ينحدر إلى قاع الأخلاق الرديئة ، فعندما تتحكم الغريزة بالعقل و ليس العكس ستنفتح أمام المرء أبواب الجحيم حرفياً .. و كي يقاوم الإنسان شيطانه هنا ، عليه تغليب العقل على الغريزة كي يسيرها وفق أصول معينة لا تضره أو تضر الآخرين و هذا ما يسمى جهاد النفس ، و هو أصعب أنواع الجهاد ..

ثم يأتينا **المال** ، المال بالطبع ضرورة لا غنى عنها للبقاء على قيد الحياة أولاً ثم لتحقيق حياة كريمة ثانياً و ربما لتحقيق حياة رغيدة ثالثاً .. لكن أن يتحول حب الثراء السريع إلى هاجس عند الإنسان فذلك ينذر بأسوأ العواقب ، لأن الطريق لتحقيقه غالباً ستكون مليئة بمطبات الفساد و الغش و الاختلاس و السرقة و ربما الجريمة .. و هنا الإنسان يقاوم شيطانه بالرضا بما رزقه الله و محاولة تحسين وضعه الاقتصادي بالطرق المشروعة .. فالحلال البطيء سيبقى

بلا شك أحسن عاقبة من الحرام السريع ..

هنا تطل **الشهرة** برأسها تحت الأضواء ، فهوس الشهرة قد يصل بالبعض إلى ارتكاب كل أنواع المعاصي لتحقيقها .. رغم أن الشهرة بالأساس سراب بل مصيدة حقيقية.. لذا على الإنسان أن يسعى إلى الشهرة الإيجابية بالعمل الصالح المفيد للبشرية ، لا الشهرة السلبية بالتهريج و إيذاء الذات و تحطيم الآخرين و غيره .. و هنا الإنسان يقاوم شيطانه بالتركيز على العمل الإيجابي الذي يطوره و يطور الآخرين ، و في الواقع الشهرة الإيجابية هي التي تقصد الإنسان الناجح و ليس العكس لذا ستأتيه الشهرة من حيث لا يحتسب..

نتسلق على عرش **السلطة** قليلاً .. إنّ هوس المجد و الجاه و التحكم بمصير العباد حلم راود آلاف الطغاة عبر التاريخ ، و في سبيل تحقيقه حدثت مجازر و خيانات و انقلابات و طغيان ، فأن تقنع الملايين باتباع كلامك ليس أمر هين ، بل ينبغي أن يكون كلامك موزوناً و فيه مصلحة المجتمع و بعيد عن المكاسب الشخصية .. و هذا ما يتعارض مع أحلام السلطة و هوس التحكم بالآخرين ، لذا لن ينصاع الشعب لك ، و بالتالي ستلجأ للعنف و غيره لفرض سيادتك و كلمتك عليه .. و هنا الإنسان يقاوم شيطانه بالوعي أن المناصب تكليف لا تشريف .. أي أن يبتغي من بحثه عن السلطة إحقاق العدل و تأمين الحريات و الحياة الكريمة للشعب لا استعباده و استغلاله ..

أخيراً لدينا **الشك** ، عندما ينخر سوس الشك بوجود الله و الحياة بعد الموت في روح الإنسان ، يفقد كل خصاله البشرية الحميدة ليتحول إلى وحش ناطق لا يردعه رادع عن تحقيق كل ما سبق .. و هنا الإنسان يقاوم شيطانه بأن يؤمن يقيناً أن الله حق و أن حياته على هذا الكوكب رحلة وجيزة ستنتهي قريباً و العاقبة في الآخرة

حيث الحياة الأبدية .. فيزهد بدنيا قصيرة الأمد في سبيل آخرة للأبد .. لذا فالإيمان بوجود الله و بجنانه بعد الموت يعتبر نقطة الانطلاق و حجر الزاوية في هزيمة الإنسان لشيطانه المتغلغل في دماغه فيكتم صوته ويشل تأثيره عليه كلياً ..

أعزائي ، لا تتوقعوا أن يتجسد الشيطان أمامكم كمخلوق يحاول زعزعة إيمانكم و دفعكم إلى الخطيئة ، فالشيطان فكرة قبل كل شيء .. فكرة من خمس أركان كما أسلفنا و الشيطان يجلس في مركز هذه النجمة و يراقب عن كثب كيف يعيش الإنسان في حياته الصراعات الكبيرة مع الغريزة و المال و السلطة و الشهرة و الشك ..

يقول **بولس الرسول:**

(البسوا سلاح الله الكامل كي تقدروا أن تثبتوا ضد مكائد إبليس فإن معركتنا ليست مع شيطان من لحم و دم ، بل هي مع الرؤساء ، و السلاطين ، و ولاة العالم التابعين له على ظلمة هذا الدهر)

أي أن الشيطان ليس مخلوقاً مجسداً بذاته بل هو فكرة أنّ الإنسان عندما يهزم في معركته مع واحد أو أكثر من الخماسي السابق فإنه سيتحول بذاته إلى شيطان حقيقي يغوي الآخرين و يفسد في الأرض .. فالشيطان مخلوق وحيد و البشر بالمليارات ، فكيف سيتمكن من الوسوسة لهم جميعاً في نفس الوقت ، ما يحدث على أرض الواقع أن كل إنسان من هذه المليارات يتصارع يومياً مع مخمس (الغريزة و المال و السلطة و الشهرة و الشك) الذي هو الشيطان الحقيقي فإما أن ينتصر المرء و يعيش كملاك حقيقي أو ينهزم و يتحول إلى شيطان بنفسه **!!**

في ليلة القبض على مخلصنا يسوع قبيل صلبه تجسد أمامه الشيطان على هيئة أفعى و أخذت تغويه كي يستسلم و يتراجع عن

إكمال ما تبقى من رسالته فينقلب على خالقه ، عبر إخافته من عذابات الضرب و الصلب ، و توهين عزيمته بأن أحد تلامذته خانه و البقية سيتخلون عنه ، و كأن كل حياته كانت عبثاً و فشل في رسالته و مسعاه .. فالله بذلك تخلى عنه فلماذا يتعلق به ؟.. لكنّ المسيح قاوم كل ذلك و تجاهل كلام الشيطان بصلابة و شجاعة فداس رأس الأفعى و سحقه .. فما الذي حدث بالفعل ؟

المسيح تعرض لأحد أركان المخمس الشيطاني و هو الشك ، لكنه تغلب عليه و مضى برسالته إلى النهاية ..

و السؤال الأهم الآن هو كيف تهزم شيطانك ؟

إن أردنا توصيف أقوى سلاح للشيطان في معركته مع الإنسان فلن نجد أنسب من كلمة واحدة (**استسلم**) ..

استسلم لفقرك فاسرق .. استسلم لكسلك فغش ، استسلم لفشلك فلا تحاول ، استسلم لضعفك فلا تقاوم ، استسلم لغريزتك فاتبعها ... استسلم على طريق الصواب الوعر فاتخذ الطريق المختصر بالخطأ و الخطيئة كي تبلغ أهدافك و رغباتك بأقل جهد ممكن ..

بالمقابل فإنّ أقوى سلاح للإنسان في مواجهة شيطانه هو : (**حاول ، قاوم و استمر**) .. و تذكر أن هزيمتك لا تكون من خارجك أبداً بل تبدأ من أعماقك أولاً ، فكل إغواءات البشر و الظروف القاهرة من حولنا تبدأ من كلمة واحدة (موافق) فإن نحن لم ننطقها ، عجزت جميع الأساليب الشيطانية الممكنة عن جرنا إلى الخطيئة ..

و لنتذكر أن الإنسان الناجح الصامد يجد حلاً لكل مشكلة ، أما الإنسان الخنوع المستسلم فيجد مشكلة في كل حل ، أما حلول الله فلا تنتهي و تحيط بنا من كل حدب و صوب كأسلحة يزودنا بها في وجه دعوات شياطيننا للاستسلام لظروفنا القاهرة و مشاكلنا العويصة ليقول البارئ لنا :

(لا تستسلموا فالله معكم ، و من جعل نفسه في خدمة الله جعل الله كل شيء في خدمته)

فإن كان خالق كل شيء معك عندما تتبع طريق المنطق و الصواب فأي مخلوق سيهزمك بالخديعة أو الحيلة أو الإغواء التي لا تزحزح الصواب قيد أنملة **!؟**

إذن كخلاصة لكل ما سبق أيّها الأحبّة ، و كي يختمر نبيذ الحقيقة في عقولكم أعود و أكرر :

لم يكن الصراعُ يومًا بين إنسانٍ وشيطان، بل بين إنسانٍ ونفسه إذا غفلت، بين عينيه حين تغشيهما شهوةٌ، وقلبه حين ينسى أنه بيتُ الله.

فالشيطان، كما وصفته صحفُ الزمان، ليس دومًا نارًا تمشي على قدمين، ولا صوتًا أجشًّا في الليل يوغل في الوسوسة. بل هو ظلّك، حين تُولّي وجهك عن النور، حين تُغلق نوافذك أمام الشمس وتُحدّق في جدارك القاتم وتقول :

هكذا هي الحياة، ظلامٌ فقط.

هو نَفَسك حين تتثاقل للصلاة،

هو يداك حين ترتجف عن الكرم،

هو فكرتك العابرة التي تقول لك :

لن تنجح... لا تحاول... كلّ شيء بلا جدوى.

هو صوت العالم حين يصيح في أذنك :

اتبع غرائزك، عِش اللحظة، اكسر القيد، لا أحد يراك.

بينما الله يراك.

أيّها الأحبّة...

الشيطان ليس خصمًا خارجيًّا بقدر ما هو تسوية داخلية خاطئة.

هو العقد الذي تبرمه مع راحتك على حساب حقيقتك.

هو القبول الهادئ بأن تكون أقلّ ممّا خُلقت له.

حين تبرّر الشر بحجّة الخير،

وحين تتقن تلوين الأكاذيب بالنية الطيبة،

وحين تساوم على نورك كي لا تبدو مختلفًا في عيون الناس...

فأنت لا تحارب شيطانًا...

بل تُطعمه من جسدك.

إنّ من يهزم شيطانه،
ليس الأقوى جسدًا،
ولا الأعلى علمًا،
بل هو الأصدق مع نفسه...
الذي إذا نظر في المرآة لم يخشَ أن يرى الوحش الذي يختبئ في عينيه،
ثم قرر أن يروّضه.

الشيطان يا أحبتي،
قد يتجسّد في فكرة،
في رغبة،
في فرصة سهلة،
في صديقٍ يبتسم لك وهو يدفعك نحو الهاوية ببطء ولباقة.

لكنه لا ينتصر عليك حتى تقول له : **ادخل** .
ولا ينهزم حتى تقول له : **اخرج** .
فالشيطان ليس سيفًا، بل هو فتور في العزيمة،
وكلما نهضت من سقطتك، احترق جناحه قليلاً،
وكلما قلت "لا" رغم ضعفك، اختنق في صدرك ولم يعد له صوت.

أيّها السائرون في الليل...

تذكّروا دومًا :

ليس للشيطان منزل إلا المهجور من قلبك،

وليس له سلاح إلا ضعفك عن قول : "كفى".

فمن أراد أن ينتصر،

فليبدأ من هناك...

من حيث يبدأ كلّ شيء :

من الداخل.

و في ختام عظة اليوم التي حملت عنوان (مخمّس الشيطان) من الأنسب بعد اليوم ألا نقول لأنفسنا : الشيطان يوسوس في رأسي كي أفعل كذا و كذا ..

بل أن نقول : الشيطان فكرة بالأساس .. و من يوسوس في رأسك هو صراعك الشخصي مع مخمس الشيطان (الجنس و المال و السلطة و الشهرة و الشك) ..

و ألا نقول : لقد أعلنت الاستسلام ، كيف أواجه عدواً بلا مبدأ أو رادع أو خطوط حمراء .. فالصواب يتيم و للخطأ ملايين الآباء ..

بل أن نقول : المعادلة في هذه الحياة بسيطة للغاية تقوم على ساقين لتضع ساقاً على ساق كملك متوج لا يقهر :

- **الصواب ثابت لا يتغير** ، و لا أحد قادر على لي ذراع قوانين الدنيا ، و لو قال مليار شخص أن **4 + 3 = 6** سيبقى الجواب هو **7** و لو اتبعه شخص وحيد أو حتى لو لم يتبعه أي إنسان ، فقد أتى بشر و رحلوا و أتى غيرهم و

رحلوا و هكذا ، في حين بقيت القوانين راسخة لا ترحل، فهل من قوة أكبر من ذلك **؟!**

- **المخلوق لا يمكن له أن يهزم خالقه مهما فعل** على نحوٍ بديهي .. فالخالق يعرف كل شيء عن مخلوقاته بأدق التفاصيل و مكامن القوة و مواطن الضعف فيها ، أما المخلوق فيجهل كل شيء عن خالقه إلا بما كشفه بنفسه عن نفسه من كونه عادل ، جبار ، لا محدود القدرة .. فكيف لنا أن نتخلى عن هذا الخالق النبيل القوي لنتبع مخلوقاً وضيعاً محتالاً كشيطان يوسوس في صدورنا و يغوينا كي ندمر أنفسنا بأنفسنا سواء أكان كائناً حقيقياً أم مجرد فكرة تعيش في كل إنسان ..

يسوع لا يحتاج تمجيدنا له .. لا يريد أتباعاً كأرقام .. بل يريدنا أنواراً جديدة تشع في سماء الدنيا .. يريد خلاصنا ، و لا خلاص لنا إلا بهزيمة شياطيننا لذا كانت عظتنا هذه ..

أيام ميلاد مجيدة عليكم يا أبنائي .. فلنجعل شياطيننا خارج هالتها المباركة ..

انتهت عظة القس، وخيّم على الكنيسة صمت، ليس كالصمت العابر الذي يسبق التصفيق، بل صمت يشبه صمت القبور حين تمر الملائكة، صمتٌ محشوٌّ بخشوعٍ فاض عن قلوبٍ ضاقت به فلم تعد تستطيع الكلام.

لم يتحرّك أحد.

حتى الأطفال الذين طالما عبثوا بظلال الزجاج الملون جلسوا كأنّهم بلغوا من الفهم عمر الأنبياء.

كلماته لم تكن خطبة، بل كانت نهرًا دافئًا انساب من قلبه إلى أرواحهم، كلمات ليست للحفظ، بل للاستيقاظ. دخلت من آذانهم نعم، لكنها أقامت في أماكن أعمق :

في الجيوب المهجورة من الضمير.

في أقبية القلب التي كاد يعلوها العفن.

في الحفر التي تركها الحسد والشك والغريزة.

كأنما كل كلمة نطق بها القس باتريك كانت مشعلًا صغيرًا راح يشعل الشموع المنسية في أركان أرواحهم، فأضاءوا من الداخل...

ولأول مرة منذ زمن بعيد، رأوا أنفسهم كما هم، بلا أقنعة، بلا عذر، بلا مكياج باطني.

رجلٌ مسنّ في الصف الأول، كان دائمًا ما ينام في العظات، بكى بهدوء... لم ينتبه إليه أحد، لكنه هو فقط أدرك اليوم أنه قضى عمره يهرب من بابين : باب الشك، وباب المال.

امرأة في الأربعين كانت على وشك الطلاق، شدّت على يد زوجها كأنّها تمسك بطرف النور الأخير، فهمت أن الشيطان لم يكن في تصرفاته، بل في غرورها هي، ورفضها المستمر لأن تكون أقلّ من مثالية الانستغرام ..

شاب في العشرين، يرتدي حلقًا في أذنه و يمطر جسده بوشوم لجماجم و شياطين ، تملّكته رغبة مفاجئة أن يخلع حلقه، أن يسلخ جلده عنه ، لا لأن أحدًا وعظه، بل لأن كلام القس جعله يرى نفسه من الداخل، فرأى التكبر و الضياع عاريين ، ورأى الله واقفًا ينتظر... صامتًا.

وبينما غرق الداخل في نور منبعث من كلمات القس، كان الخارج مشهدًا مختلفًا تمامًا :

ثلوج تتساقط بكثافة، تغطي كل شيء ببطء متأمل كأنّ السماء تخيط غطاء أبيضًا للأرض كي تنام دون كوابيس. الريح تعصف، لكن النوافذ الزجاجية الملوّنة كانت تحجبها كأنّها دروع قدّيسة.

والبرد...

ذلك البرد الذي نهش عظامهم عند دخول الكنيسة، لم يعد له أثر.

دفءٌ غريب سكن قلوبهم. ليس دفءَ المدافئ، بل دفء نادر لا يأتي إلا حين تُوقَظ الروح من غيبوبتها، ويُستعاد الضوء من بئر الجسد.

خرجوا من الكنيسة بعد حين، بخطى متثاقلة، كأنهم يخشون أن تفرّ من قلوبهم الكلمات التي غسلتهم.

أحدهم تمتم لنفسه :

= لقد سحق القس رأس الأفعى داخل كلٍّ منا.

وآخر نظر إلى السماء وقال :

= يا رب، ما زلت هنا، وأنا ما زلت أسمعك.

وفي زاوية الكنيسة، بقي القس وحده، يجلس على مقعده الخشبي العتيق، ينظر إلى الشموع التي لم يطفئها بعد، ويبتسم ابتسامةً مائلة كأنه يرى الملاك يحرك قطعة الشطرنج الأخيرة ويهمس للشيطان بثقة :

(لا يزال الدور قائما و المعركة لم تنتهي ..)

رجل الدمى

نمر الجاغوار ..

كان يُدعى **باولو فيرّيتّي**. ولم يكن أحد يجرؤ أن ينطق اسمه كاملًا في حي **بروكلين** بنيويورك بعد منتصف الليل.

حتى رجال الشرطة كانوا يشيرون إليه بألقاب غامضة : السيد من الطابق السادس ، الظل الإيطالي ، أو ببساطة : "هو".

وجهه يشبه وجه أرستقراطي نجا من لوحة من عصر النهضة. سحنة هادئة، أنف مستقيم كحدّ السكين، عظام وجنتين مرسومتين بدقة، شعر أسود فاحم كريش الغراب يصففه إلى الخلف دون أن تتجرأ شعرة واحدة على التمرد.

لكنّ عينيه...

ذاك الشيء الذي لا يمكنك نسيانه أبدًا.

عينا صقر يرمق ضحيته من أعلى ..

عينا جلاد يستمتع بالتعذيب تحت الأقبية و خلف الستائر ...

رماديّتان، كأنهما صخرتان على حافة قبر قديم منبوش .

كان باولو يمشي بثقة رجلٍ يعرف أن المدينة كلها تخاف أن تلمس ظله. يرتدي بدلات زارينو كوتشينيلي المصمّمة خصيصًا له، يحمل ساعة رولكس من طراز ديب سي ، ويتعطّر بعطر نادر لا يُباع في الأسواق... بل يُصنع له خصيصًا، بقطرات من دخان العود ومزيج من عنبر الحيتان.

صوته منخفض، بارد، لكن حين يتكلم، تشعر أن هناك قنبلة نووية تنتظر أمرًا صغيرًا من شفتيه لتنفجر.

كان باولو فنانًا في ارتداء الأقنعة.

هادئ كقسّ تريد أن تعترف له بخطاياك لكن بفخر ، لطيف في تعابيره كراهب تيبتي، يبتسم أحيانًا مثل أب يُطعم حمامة في ميادين روما، لكنه في باطنه، كان شيطانًا يجيد الحسابات الباردة.

لم يُرَ غاضبًا قط.

لكنه أمر ذات مرة بقتل سبعة رجال لأن أحدهم ناداه باسمه دون ألقاب. وفي مأدبة عشاء بدا فيها كصاحب قلب كبير يتسع لجميع خصومه، كان قد أرسل في الوقت ذاته فرقة كاملة لتفجير مقراتهم مع من فيهم.

يقتل باولو كما يشرب قهوته : دون تردد، دون انفعال ، و بلذة.

إنه لا يرفع صوته... بل يرفع مسدسه ويهوي بالجحيم على من يخونه.

ولا يُقسم، بل يكفي أن ينظر.

يشبه نمر الجاغوار: نادر، جميل، مميت.

يحفظ أسماء أولئك الذين نظروا إليه نظرة شك.

ولا ينسى من لم يقف احترامًا عند دخوله.

الرعب فيه ليس في سلوكه، بل في غيابه عن الفعل...

لأنك لا تعلم أبدًا متى سيفعل.

يعيش باولو في برج سكني شاهق وسط **مانهاتن**، في شقة بنتهاوس لا تُفتح أبوابها إلا بالبصمة والحدس.

الطابق كله له .. لا جيران، لا أصوات أطفال، لا فضول.

كل شيء هناك أبيض أو أسود كأحجار الشطرنج ..

رخام إيطالي مستورد ..

مكتبة من كتب نادرة ، فيها مصيره مكتوب ، لكنه لا يقرأها ..

مدفأة لا تشتعل و كأنه لا مكان للدفء في عالمه ..

وصورة ضخمة له معلّقة في غرفة الطعام كأنه سليل القيصر.

كاميرات مخفية ..

حراس لا يظهرون إلا عند اللزوم ..

ونظام أمني يضاهي قواعد الجيش الأميركي.

لكنّ الحصن الحقيقي لم يكن الحراس...

بل الخوف الذي يشيعه في النفوس.

من شرفته، يرى المدينة تحت قدميه، تمامًا كما يرى الناس : نقاطًا صغيرة تتحرّك في الطرقات، جاهلة أنها تعيش على رقعة الشطرنج التي يُديرها.

زوجته، **مارسيلا**، كانت في البداية مجرد دمية إيطالية حسناء تُرضي غروره في الحفلات الراقية. تزيّن ذراعه كساعة ثمينة، لكن باولو لم يكن يعرف الحب. بعد عشر سنوات من الزواج، أصبحت مرآة مكسورة في ركن القصر، يراها فقط حين يحتاج لإثبات أنه ما زال زوجًا شاباً ..

وكان يخونها...

دون شعور بالذنب ..

بل بتكرار يُشبه الطقوس.

من محظية إلى جارية .. من غيشة إلى دمية جنسية أخرى ..

أما ابنته الوحيدة **كاتيا**، فكانت نقطة ضعفه الوحيدة...

تبلغ السابعة عشرة ..

جمالٌ هادئ لا يشبه والدتها ولا والدها ..

بل يشبه الروح التي حاولت أن تبقى نظيفة رغم الحبر الأسود في

جينات العائلة.

لم يكن يرفض لها طلبًا ..

لكنه لم يكن يراها إلا عند النوم ..

ويكتفي أن يضع لها حراسًا ومدرسين خصوصيين وأطنانًا من الهدايا.

كاتيا كانت تعرف...

أن والدها يتزعم إمبراطورية للشر..

لكنها كانت تبحث في عينيه عن إنسان...

و دائماً بلا جدوى.

شبكة باولو تمتد كجذور شجرة ميتة في قلب المدينة.

مخدرات ؟

هو ليس مجرد تاجر... بل شيخ الكار.

الموانئ، الطرق، الحدود... كلها تمرّ به.

بغاء ؟

هو لا يدير بيوتًا... بل يتحكم بالنساء وكأنهن أوراق لعب.

يملك أكبر شبكة استغلال في الساحل الشرقي، وتقع تحت إمرته ثلاث عصابات تتقاتل فيما بينها... لكنه الرابح في كل الأحوال.

سلاح ؟

في كل حرب يدسّ البارود، ثم يبيع السلاح للفريقين.

من أفريقيا إلى الشرق الأوسط، هناك من يموت برصاصة دفع

ثمنها باولو... ثم قبض أضعافها.

ابتزاز ؟

من السياسيين إلى رجال الدين ..

من أصحاب المتاجر إلى مدراء المصارف ..

الكل مدين له ...

أو خائف منه ..

أو مات وهو يتمنى لو لم يعرفه.

ولأنه يعرف أن الخوف وحده لا يكفي و أن القانون له آثار من النفوذ ، أسس لنفسه قناعًا من الشرعية :

مؤسسة خيرية، مسجد ومعبد وكنيسة يتبرع لها، ورجال قانون ينحنون له في السرّ كما يفعل الخاطئون أمام المذبح.

في نيويورك، لا تسقط ورقة من شجرة دون أن يُبلّغ باولو بذلك.

هو ليس رجلًا...

بل منظومة،

هو ليس قاتلًا...

بل حارس مقيرة ..

ولذا، حين تمشي في شارع هادئ على الساحل الشرقي ذات مساء

و تشعر أن كل شيء طبيعي...

تذكّر فقط :

قد تكون تمشي فوق أحد ألغامه...

وقد لا تنفجر اليوم...

لكنها تراك و تراقب خطواتك ..

*****

صفقة مع الشيطان ...

لم يكن باولو فيرّيتّي ملحدًا على الطريقة التقليدية.

لم يكن ممن يقرؤون كتب الفلسفة ويجادلون في أصل الخلق والنهايات.

كان ملحدًا بشهوةٍ عميقة، تسرّبت من قلبه حين جفّت فيه الرحمة، لا من رأسه حين تاه العقل.

في إحدى ليالي الشتاء، جلس وحده في كنيسة مهجورة في أحد الأرياف ، وكانت الريح تعوي في النوافذ كذئب جائع، فتقدّم إلى المذبح، لا ليصلي، بل ليحطّم الصليب، ويضع عليه دفترًا جلديًا قديمًا... كان على غلافه اسمه مكتوبًا بحبرٍ لا يمحى، و بين صفحاته أسماء من عاداه بدم النعاج ..

لقد عقد صفقة.

صفقة مع ما لا يُسمّى ..

مع كائن بلا جسد ..

يراقبه من وراء الضمير ..

همس له يومًا :

= أعطني إيمانك، أعطيك بصري. أعطني قلبك، أنطقك بحجّتي. أنت لا تحتاج إلى الله، فأنا سأجعل منك إله الأرض السفلى.

فقَبِل.

ومنذ تلك الليلة، لم يُرَ باولو يُصلّي ..

لم تُذكر أمامه كلمة الله دون أن يسخر ..

لكنه كان كلما دخل مكانًا، تساقط الضوء، وانكمش الهواء، وتغير مزاج الزمان.

كان يسير كما لو أن الجحيم يمشي معه و يمطر بوابل من الموت

وقد قال عنه أحد رجال عصابته :

= لا يحتاج إلى بندقية... فقط ينظر.

منحته الصفقة شيئًا لم يُمنح لغيره : **عين الشيطان ولسانه**.

أصبح يرى ما لا يُرى ..

يستشعر الخوف من مسافة ..

ويعرف متى يكذب خصمه ..

ويكشف النوايا كما يسلخ الجزار الجلد عن عظم.

لكنه أيضًا، بدأ يسمع صوتًا لا يسمعه غيره .. كان يأتيه في أنفاس الصباح الأولى ، وفي هزيع الليل، ويُلهِمُه بأفكار لا تأتي من البشر.. كان ذلك الصوت يقول :

= احرقه، فتكون الجريمة الكاملة ..

ابتسم له، ثم اطعنه حين يأمن جانبك ، و حيث لا يُشفى ..

اربط حبيبته إلى جسده، ثم اغرقهما معًا كي يصبح الألم مضاعفاً.

وفي إحدى الليالي، وقف أمام مرآته في البنتهاوس، فلم يرَ نفسه، بل رأى وجهًا آخر. وجهًا بعيون سوداء بالكامل، يبتسم بأسنان من زجاج على هيئة دراكولا لا غير.

فقال له الصوت :

= أنت الآن كلب هاديس إله العالم السفلي الوفي ، و كلب الإله .. إله ..

أصبح باولو يفتك بالناس لا كرجلٍ ينفذ جريمة، بل ككاهنٍ ينفذ طقسًا... طقسًا دينيًا لعقيدة لم تهبط من سماء بل تبخرت من أعماق الأرض ...

يقال أنه **نزع الكبد من فلذة كبد** و هو يبتسم بنشوة .. ففي أحد مستودعاته المهجورة قرب النهر، أنشأ باولو مختبرًا سريًا لتهريب الأعضاء. ولم يكن يقتل الأطفال فحسب، بل كان يُجبر بعض أطباء منظمته على إبقاء الجسد حيًا أثناء اقتلاع الأعضاء، ليراقب ارتكاسات الطفل و روحه تخرج قطعة قطعة.

وقد قال أحد الجراحين الذين رضخوا لابتزازه قبل انتحاره :

= كان باولو يأتي إلى المختبر، يجلس بهدوء، ويطلب مني أن

أصف له نظرة كل طفل حين ينتزع كبده. . ثم يبتسم ويقول : **أريد أن أرى إن كانت هنالك روح تغادر الجسد بالفعل أو أثبت أن الإله خرافة يعتنقها اليائسون ..**

أما **عروس النار** .. فحكاية أخرى تنسب له و لا غرابة أن تكون حقيقية .. كانت فتاة تُدعى **لورا**، قُبض عليها بتهمة التخابر مع الـ**FBI**. لم يُرد باولو قتلها بالرصاص، بل استدرجها إلى محفل خاص و حوله عشرة من رجاله. ألبسوها فستان عروس أبيض، اعتدوا عليها جماعياً ثم وضعوها في حجرة زجاجية مملوءة بالغاز هاربة من كوابيس نازية، وأوقدوا النار ببطء...

ابتسم باولو و هو يرمقها رافعاً كأس النبيذ أو الدم :

= هذا زفافك من هاديس ، كم أنت محظوظة .؟!

وظلّ يشاهدها حتى ذابت عيناها كشمعتين...

و من قصصه التي يشيب الطفل لسماعها ، **الجنازة المفتوحة** ، اختطف باولو ذات يوم قاضيًا فيدراليًا كان يُعدّ ملفات لإدانته. لم يقتله فحقده كان أكبر من قتل عادي. بل أحضر له تابوتًا، وجعله ينام فيه عاريًا لمدة **3** أيام، في قبو تحت الأرض، يسمع فيه أصوات عويل وجثث تنهار، ثم نزل إليه، فتح التابوت، وقال :

= الآن أنت ميتٌ من الداخل، يبقى أن تموت من الخارج فميتة وحيدة لا تكفيك و لا تصوب خطيئتك ، فلتذهب و ملفاتك إلى الجحيم السفلي ..

ثم أطلق عليه الرصاص وهو يضحك ضحكة هستريائية لمختل عقلي... أشبه بنباح جاف لكلب إله الجحيم من أفواهه الثلاثة ..

كانت تلك الجرائم، كأنها إعدامات ميدانية موقعة من الشيطان. كل واحدة لها نكهة مختلفة من الشر، كأنها مزيج من الفنون السوداء...

لا تُقتل الضحية فحسب، بل تُمحى من حسابات الوجود ..

وفي أعماق نفسه، لم يشعر باولو بالذنب. بل شعر أنه ينفّذ مشيئة قدر آخر عندما افتقدت السماء الحلول ..

كان يقول :

= الله صمت كثيرًا... فأجبت بدلًا منه.

وكان يؤمن، أو يتظاهر بذلك :

أن الجحيم ليس عقوبة فحسب...

بل مُلكية ..

وقد أصبح هو الملك بلا منازع .. و مصائر البشر في قبضته يرسمها بأنامله كيفما شاء .. يحركها كرجل الدمى بخيوط غير مرئية من ألسنة اللهب..

الشهرة :

بوابة إلى الجحيم

مصيدة الجمال و هوس الأضواء ..

كان يُقال عنها في حيّها القديم **بلوس أنجلوس** إنها جميلة أكثر مما ينبغي.

عيونها الزرقاء بلون شفق المساء حين يغرق في الحنين، وشعرها أشقر طويل، يتماوج كما لو أن كل خصلة فيه تحمل لعنةً مستترة، بشرتها ناعمة، بلون العاج، شفتاها تميلان إلى امتلاءٍ أنثوي فاضح رغم براءتها الظاهرة.

سامانتا هاربر...

لم تكن فتاة عادية، ولا تريد أن تكون كذلك.

كانت تعلم منذ طفولتها أن جمالها رأس مال في عالمٍ لا يؤمن بالقيم.

في المدرسة، لم تكن الأولى، لكنها كانت موضوع الحديث بين التلاميذ.

تعرف كيف تمشي، كيف تنظر، كيف تبتسم لتربك ..

كانت تؤمن بفكرة واحدة، تعتاش عليها كما يعتاش المشرد على فتات الخبز :

= الغاية تبرر الوسيلة... طالما أن الوسيلة توصلك إلى الأضواء.

لم تنس ميكافيللي عندما تحدث أستاذ الفلسفة عنه .. و بعد يوم واحد فقط كانت صورته معلقة على جدران غرفتها فوق سريرها ، و كأنها كانت تائهة لشيء ما و عبدت فلسفته الدرب أخيرا إليه ..

و هكذا كانت وسيلتها و غايتها لتحقيق الأحلام هي **الشهرة**، تلك

النار المقدسة التي تراها تحترق خلف الشاشات، تمنح الخلود... ولو مزيفًا.

حين كانت في السابعة، طوى والدها حقائبه وطار إلى أوروبا، تزوج من فتاة فرنسية ونسي أنها أنجب شيئًا اسمه سامانتا.

أمها، **ليزا** ، بقيت وحدها تكافح... كانت أمًا طيبة، حاولت أن تغرس في ابنتها حبّ الكتب، الصدق، الصلاة، الثبات.

لكنّ سامانتا كانت ترسم طريقها منذ صغرها.

كانت تكره غرفة نومها الصغيرة، تلفازها البسيط إلا عندما تظهر عليه وجوه المشاهير ، الحي الممل، و تعتبر أن أمها ضيّعت عمرها في محاولة تربية ابنة بمنطق عفى عليه الزمن و لا يثمر ..

كانت تقول لها أمها :

= المجد لا يأتي سريعًا، والنجاح الحقيقي هو أن تكوني إنسانة محترمة.

فترد سامانتا بعينيها :

= بل النجاح هو أن أكون مشاهدة.. أن تهتف الفتيات باسمي و يتمنى الفتيان ابتسامة مني أو إن كانوا محظوظين أكثر صورة معي ..

وكانت كلما نظرت في المرآة، ترى في وجهها شيئًا واحدًا :

بطاقة عبور إلى هوليوود ..

لا تحتاج شهادة، لا تحتاج أخلاقًا، تحتاج فقط جسدًا يعرف كيف يتموضع في الضوء.

ليلة جمعة، كانت سامانتا مع صديقتها **بيلا** في أحد بارات ويست هوليود ، كانت ترتدي فستانًا أسود قصيرًا يُعلن عن مفاتنها كما تُعلن العاصفة عن قدومها بهدوء متصاعد .

وكان هناك... على الزاوية، يجلس **روي سانشيز**، منتج هوليوودي خمسيني، بدين قليلًا، ببشرة مشدودة بفعل عمليات التجميل، وعينين ماكرتين تلمعان كما تلمع أعين الضباع.

رآها و ذهل من جمالها ، فابتسم ..

دعاها إلى طاولته بكأس من النبيذ الأبيض، عرّف عن نفسه ثم تحدث معها عن مشروع فيلم سينمائي، ..نظر إليها مطولًا و قال :

= أراكِ في دور في هذا الفلم ... بسيط نعم ، لكنه سيكون بصمتك

الأولى ..نحتاج فقط توقيعًا صغيرًا لإنجاز الأمور...

لم تفكر للحظة.. وقّعت بقلبها ، عقلها و ضميرها الذي كان هذا آخر قرار له و آخر صيحة منه قبل أن يدخل في سبات شتوي.

فالعقد لم يكن كافيًا.

حين دخلت مكتبه الزجاجي في الصباح التالي، قال لها :

= الدور حقيقي و لك بلا شك... لكن يجب أن تكوني منا أولاً .. تمامًا كما فعلت كثيرات من مشاهير هوليوود.

وحين ترددت، اقترب منها، فتح درج مكتبه، أخرج قلادة سوداء تحمل نجمة خماسية حمراء مقلوبة وقال :

= هنا لا يكفي أن تمنحي جسدك للكاميرات ، بل يجب أن تمنحي روحك للمخرج الأعظم القابع في الظل خلف الكاميرات.. ستنتمين إلى الدائرة... إلى الأخوية.

دهشت قليلاً من كلامه الغريب ، لكن سرعان ما هزّت رأسها

بالموافقة دون أن تعي بالضبط معانيه الخفية.. فقد أعمتها أضواء الشهرة عن أي شيء آخر ..

وكانت تلك اللحظة، اللحظة التي أغلقت فيها الباب إلى الله… وفتحته للشيطان.

سلمت جسدها لروي كما سلمت روحها للظلام ، و ماضيها للنسيان

الفيلم حقق نجاحًا صاعقًا.

سامانتا ظهرت في مشهدين فقط ..

لكن الكاميرا وقعت في حبّ وجهها .. كما الجمهور بالضبط ..

وبدأت العروض تتوالى :

بطولة في فيلم رومانسي، ثم إعلان لعلامة تجارية، ثم مسلسل تلفزيوني.

بدأت تُعرف… ثم تُلاحق.

أصبحت الوجه الجديد لهوليوود ..

الوجه الذي يُغري الكاميرا ويُحرّض الفضائح.

لكن شيئًا ما تغيّر.

كلما لمست النجاح، شعرت أنها تنزلق أكثر.

كانت توقّع العقود دون أن تقرأ، وتبتسم في المؤتمرات الصحفية رغم أنها كانت تبكي قبل دقائق في الحمام دون أن تفهم لماذا ؟.

الشهرة كانت تحرق أطراف روحها…

أمها لاحظت ذلك بقلب الأم الذي لا يخطئ .. نصحتها لكن عبثاً ..
فات الأوان ..

لم تعد قادرة على التوقف.

فكلما أرادت أن تتراجع، كان روي يذكّرها...

= لقد أقسمت.. دخلت الدائرة بلا روح . و لا خروج منها إلا بذات الهيئة ..

*****

اللقاء مع سيد الظل ..

في إحدى ليالي الأحد، بعد انتهاء مهرجان جوائز سينمائية، قادت سامانتا سيارتها السوداء تحت إشراف روي إلى **تلال ماليبو** ، حيث تنتصب في الظلّ فيلا منعزلة ذات أعمدة حجرية ونوافذ مضللة بالأسود.

حين دخلت، لم يكن هناك ضحك أو موسيقى، بل همسات غريبة بلغة لا تشبه الإنجليزية، روائح بخور كثيفة، أرضية تشبه رقعة شطرنج ، وأشخاص يرتدون عباءات حمراء وسوداء، وعلى جباههم نجوم خماسية مقلوبة.

اقترب منها روي، ناولها قناعًا على شكل جمجمة تضحك، و قال :

= الشهرة يا صغيرتي، ليست على السجادة الحمراء فقط... بل هنا أيضًا، حيث تُصنع قرارات العالم الحقيقي.

في وسط القاعة، كانت هناك دائرة مرسومة بالملح الأسود، وفي مركزها تمثال ضخم لسيدهم بافوميت، برأس ماعز، وجسد إنسان، وأجنحة خفاش.

بدأت الطقوس :

رسم دوائر بدم ديك أسود ..

ترديد أسماء شيطانية ..

تعهدات علنية بالتخلي عن الإله والنور.

ثم اقترب منها أحد الكهنة، ووضع على جبينها قطرات من سائل أسود، وقال :

= أنتِ الآن سفيرة الظلال، صوتٌ للغواية، وجهٌ للجميلات الملعونات..

في تلك الليلة، لم تعد سامانتا الممثلة التي حلمت بها ، بل مرآة تعكس ظلام العالم بأقذر ممارسات قد تعرفها ، و عقب انتهاء الطقوس الشيطانية ، كانت آخر ذرة من روحها قد تلاشت و ارتمت بكامل إرادتها في أحضان بافوميت ..

بعد انضمامها الرسمي للمنظمة، بدأت العروض تتوالى على

سامانتنا أكثر ، لكن مع كل دور، كانت التعليمات واضحة من روي :

= مرّري الرسائل... دون أن يشعر أحد .. دعينا نُربّي جيلًا كاملًا على أفكارنا من خلالك كما تفعل الأخريات الشهيرات .. لن يكنّ أفضل منك و لا أكثر شهرة ..

في أحد أفلامها، ارتدت سلسلة عنق بشكل مقلوب تمامًا، أمام الكاميرا مباشرة، ظهرت نجمة خماسية رأسها إلى الأسفل ، فارتجفت الصحافة لذلك ، ليرد أحد النقّاد المنتمين للمنظمة :

= لا داعٍ للتهويل .. إنه مجرّد خطأ في الإكسسوار...

و لم تعلق سامنتا على الحادثة ..

و في إعلان عطرٍ عالمي، رفعت يدها بتشكيلة أصابع القرون ، علامة شيطانية تعني أنا منهم .

وفي حوار عابر في فيلمها الثالث، تلفّظت جملة مقتبسة من أحد كتب **أنطون لافي** أحد مؤسسي منظمتهم :

= افعل ما تشاء، فذاك هو كل الناموس.

الأمر لم يكن صدفة ..

بل كان مخططًا...

لتعويد العيون على رؤية الممنوع ..

وتعويد القلوب على رفض فكرة المقدّس من أخلاق و مبادئ ..

بدأ الجمهور يُفتَن بها أكثر، لكنها كانت تعلم أن سحرها لم يعد من صنع الله كما ولدت، بل من كائن جالس في الظلّ، يهمس في كل مشهد : نعم، أنا هنا.

عبدة الشيطان ليسوا مخلوقات من روايات الرعب أو الفانتازيا ، بل واقعٌ صلب، يمتد في السياسة، الفن، الإعلام، وحتى الموضة.

و لديهم رموز و شعارات كثيرة من قبيل :

- النجمة الخماسية المقلوبة
- رأس الكبش
- رقم **666**
- الصليب المقلوب
- رفع السبابة و الخنصر مع ثني بقية الأصابع (القرنين) ..
- الوشوم المتعددة و الموسيقى الصاخبة
- عين واحدة مفتوحة ، تمثيل لفكرة التنوير الزائف عبر العين البصيرة المرتبطة بلوسيفر ..

وغيرها ..

بل أكثر من ذلك ، فقد قام الكاهن و المشعوذ الأمريكي اليهودي **أنطون لافي** الملقب (ابن الشيطان البار) في بلادها ، بلاد العام صاموئيل و يلسون (سام) أو أمريكا بالترويج لعبادة الشيطان بشكل علني و رسمي بل أسس له كنيسة حملت اسمه (**كنيسة الشيطان**) في مدينة **سان فرانسيسكو** لتقام فيها طقوس عبادة الشيطان على نحو جريء فاضح و قانوني دون رقيب أو حسيب

كما أصدر لافي كتابه (الإنجيل الأسود) الذي جاء في نصه في الفصل الثامن :

(اقتلوا الأجّنة في بطون أمّهاتهم، واشربوا دم الصغار، واصنعوا منه حساءً، واخبزوا في الأفران لحومهم، واصنعوا من عظامهم أدوات للتعذيب)

فمبادئ عبدة الشيطان بحسب التسريبات و التصريحات كثيرة و على رأسها الثالوث الأسود المقدس :

- تحقيق شهوات النفس المتنوعة ورغباتها دون قيود حتى لو اضطرهم ذلك للقتل أو القيام بممارسات جنسية جماعية ، بل حتى مع المحارم ليكونوا أقرب للشيطان ..
- تقديم القرابين للشيطان و يفضل أن تكون من الأطفال .. و

التشجيع على الإجهاض و الانتحار..

● الانتقام، وتدمير كل من يحاول مضايقتهم بلا أدنى هوادة أو رحمة و بأبشع الوسائل و الطرق ..

و قد نالت منظمتهم شعبية لا بأس بها بسبب استقطابها للمختلفين في المجتمع الذين تم رفضهم أو التضييق عليهم من قبل العامة ، كالأقليات و المختلفين جنسياً و الأعراق الأخرى غير العرق الأبيض كالهنود الحمر أو الأفارقة أو الضعفاء الذين يتعرضون للتنمر و غيرهم ..

و للأسف فإن كل هؤلاء يلجؤون من الظلم و أذى الآخرين لهم إلى الفسوق و هو أذى أكبر لهم و بأيديهم في مفارقة غريبة و مؤلمة .. فالطريقة الأصح كي يقوي الإنسان روحه أن يلجأ إلى الله و السماء فهو المعين الوحيد من نكبات الدهر الذي لن يخذلك أبداً..

و يحاول عبدة الشيطان الترويج لأنفسهم كجماعة لطيفة تبحث عن العدل و نصرة المظلومين ، لكن ما يتسرب من مبادئهم و طقوسهم للآخرين يفترض عكس ذلك تماماً ..

أما عاداتهم ، فيقيمون طقوسًا ليلية تبدأ منتصف الليل، يحيون ما يسمونه **قداسات سوداء**، يقدمون قرابين رمزية، قد تكون حيوانات، وقد تصل في الحالات القصوى إلى البشر (كما وُثق في ملفات مشبوهة لم تُعلن رسمياً).

ويؤمنون أن الشهرة قوة، وأن من يسيطر على النجوم من المشاهير، يسيطر على العقول .. ولهذا، فإن زرع رموزهم في الثقافة البصرية هو أعظم أدواتهم.

سامانتا لم تكن الأولى، ولن تكون الأخيرة.

في مقابلات تلفزيونية حقيقية، تحدث بعض الفنانين عن هذه المنظمة بنصف همسة :

روزان بار، في لقاء عام **2014**، قالت :

= هوليوود يحكمها نظام التنوير، نظام تعبدي يخص كائنات غير بشرية.

كاتي بيري، صرّحت مرة :

= بعت روحي للشيطان كي أنجح.

رغم أنها قالتها مازحة، لكنها لم تضحك بعدها.

بوب ديلان، في مقابلة شهيرة، قال :

= أكملت العقد مع القائد الذي يحكم هذا العالم... الآن أتبع من لا يُرى.

لانا ديل راي، أقامت جلسات تحضير أرواح بشكل علني في منزلها، ثم ظهرت في إعلان بملامح تشبه المومياء والرموز البافومية.

إنها شبكة...

شبكة تجعل من الشاشة مرآةً للهاوية.

وتجعل من الفَنّ غلافًا لرسائل مشفّرة.

وسامانتا، كانت جزءًا من هذا كله، تبتسم في المؤتمرات، ترتدي الأسود في العروض، وتقول كلمات محشوة بترميز و تتعرض لموجات من النقد و الاتهام ، حتى ظنّ الجمهور أنها مجرد فتاة موهوبة تتعرض لهجوم صحفي معتاد من باب الغيرة لتحطيمها لا أكثر ، و من خلفها وقف جيش كامل يدافع عنها و يلمع صورتها ..

مذيعون ، مقدموا برامج ، صحفيون ، محامون ، و متابعون وهميون على مواقع التواصل الاجتماعي و كلهم يتبعون المنظمة...

لكن الحقيقة ؟

أنها لم تكن تمثّل فقط، بل كانت تنقل تعاليم معتمة إلى من يشاهد دون أن ينتبه.

لقد حققت غايتها الأولى منذ الطفولة (**الشهرة**) ، لكن الوسيلة لم تكن جسدها كما توهمت ، بل روحها التي لم يبقى منها في أعماقها حتى مجرد طيف عندما خطت العتبة الى بوابة الجحيم ..

تاج النرجس

عندما يكون المال غاية لا وسيلة ..

في قلب مدينة **دالاس، تكساس**، حيث تصطف ناطحات السحاب كتيجان فولاذية تلمع تحت شمس الجنوب الأمريكي، كان **مايكل كراوفورد** يمشي دومًا كأنه صاحب هذه الأبراج، لا مجرد مستثمر فيها. لكل خطوة يخطوها وقع خاص كأنها تهز إسمنت المدينة، ولكل نظرة يطلقها معنى مزدوج : ثروة لا تجارى ونظرة ازدراء لا تُرد.

مايكل، ذو السادسة والأربعين، رجل طويل القامة، عريض الكتفين، بشرته شاحبة كأن الشمس لم تلامسه منذ عقد، شعره مصفف دائمًا بطريقة كلاسيكية تعكس نزعة نرجسية كامنة في أعماقه، أما عيناه الرماديتان فتكادان تلمعان من شدة الذكاء، لا حنان فيهما ولا دفء، بل برود محاسب يتفحص أرباحه وخسائره في كل من يراه. كان جسده مثل تمثال يوناني من الجليد، يعكس الضوء لكن لا يحتفظ بحرارته.

أنفه مستقيم بفخرٍ لا مبرر له، وذقنه محفوف دائمًا بعناية كأن كل شعرة فيها موضوعة بمعيارٍ دقيق، يلبس البذلات الفاخرة كأنها دروع مصمّمة للمعركة اليومية في السوق. وعلى معصمه، ساعة سويسرية ذهبية، ليست للزمن، بل للبيان. عطره دائمًا مستورد من الخليج، قويّ النفاذ لكنه غير مبتذل، يشبه حضوره تمامًا.

في سلوكه، يتجلى نرجسي مخيف. لا يصغي لأحد إلا نفسه، يرى في المرآة تجسيدًا للكمال البشري، ويؤمن أن العالم دُفع له ليتملكه، لا ليشاركه مع أحد. إذا تحدّث، أنصت الجميع، ليس احترامًا بل قلقًا، فلكلماته كلفة. وإن ابتسم، غالبًا ما كانت ابتسامته مقنّعة، يخفي خلفها احتقارًا صريحًا لكل من لا يملك ما يملكه. لم يضحك يومًا من القلب، ولم يبكِ حتى وهو يرى أربع زيجات تنهار واحدة تلو الأخرى.

طلق مايكل أربع زوجات على التوالي، وكل واحدة كانت جميلة، ذكية، أنيقة، لكنهن كنّ عقبة أمام شهوته الحقيقية : **المال** .. كان يقول ساخرًا :

= الزواج مشروع خاسر، لا يدر عائدًا على الاستثمار.

وحتى طفل لم يسعَ لإنجابه، فقد رأى في الأبوة مسؤولية تؤخر السباق، وهو لا يهوى شيئًا بقدر الخط النهائي. لم يكن يكره العائلة، بل كان يعتبرها تعقيدًا زائدًا في معادلة يجب أن تكون بسيطة: المكسب أو الإفلاس.

لا يشببه أحد في متحف التاريخ سوى الأسطورة الإغريقية **نرسيس** الذي كان معجباً بجماله الساحر و بنفسه حد الغرور عاشقاً لانعكاس صورته في ماء البحيرة لدرجة بات لا يرى الناس من حوله و لا يتعاطف مع أحدٍ منهم .. لذا اشتق اسم **اضطراب**

الشخصية النرجسية من أسطورته و من نبات **النرجس** الذي يقوم بقتل جميع النباتات من حوله كي ينفرد بالمواد الغذائية لنفسه .. و هذا ما أدمن مايكل فعله .. تحييد كل المنافسين من حوله بالضغوط و التلاعب و الابتزاز و الربا كي ينفرد على قمة السوق ..

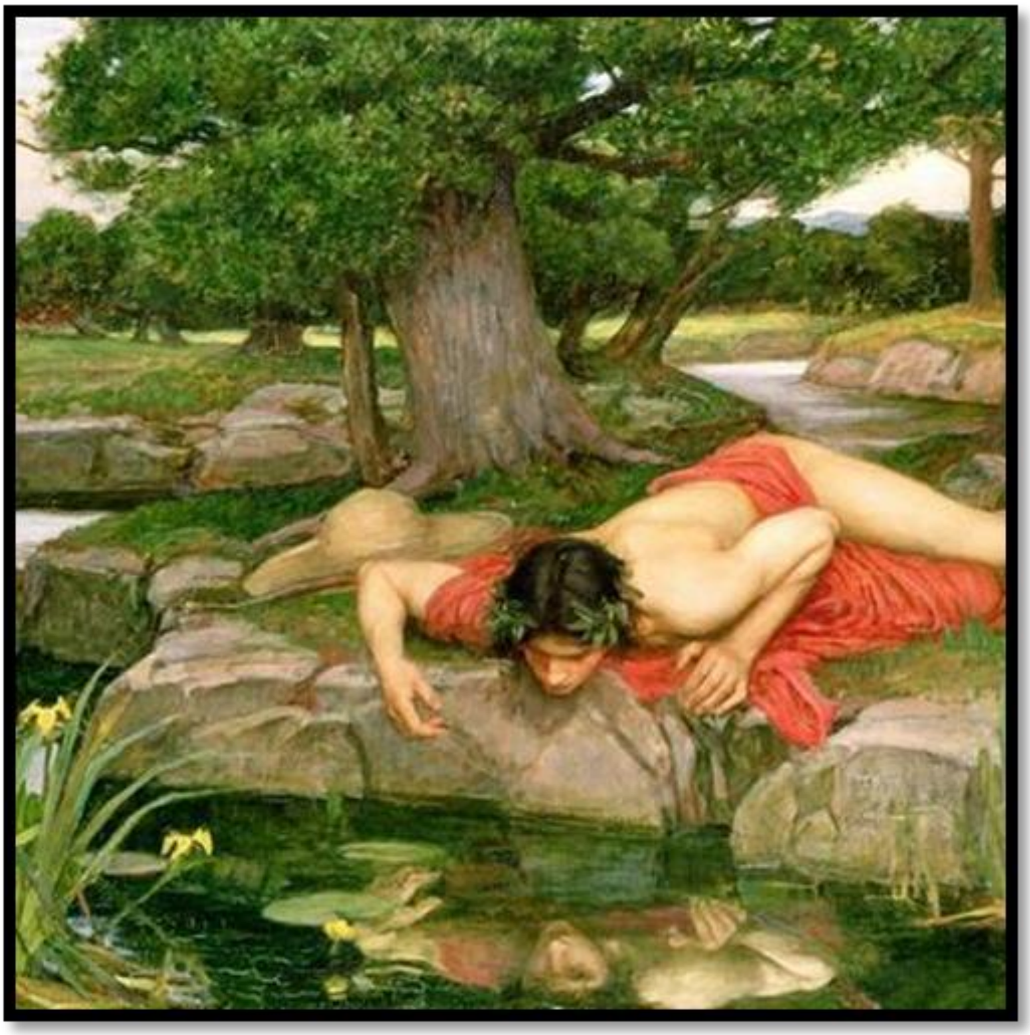

فجشعه لم يكن طمعًا بالمال فقط، بل سعيًا مستميتًا للهيمنة، لإثبات أنه الأقوى في الغابة. وقد سطر اسمه في عالم البيزنس كذئب مفترس لا يرحم ، و في أرشيفه أمثلة جمة عن طبيعته هذه ..

فمثلاً ، حين ظهرت شركة ناشئة في تكساس تنتج مواد صديقة للبيئة تدخل في صناعة التغليف، وقد بدأت بالاستحواذ على سوق مهم، أرسل مايكل جواسيسه الإلكترونيين لاختراق بريد مؤسسيها. سرق الأفكار والخطط، ثم أطلق حملة دعائية ضخمة

اتهمهم فيها باستخدام مواد مسرطنة، مُدعّمًا تقاريره بشهادات مزورة من مختبرات وهمية. خلال شهر واحد، انهارت أسهم الشركة، وتدخل مايكل واشتراها بربع قيمتها السوقية ، ثم أعلن بعد سنة عن مشروعه الجديد : التغليف النظيف... من أجل مستقبل أفضل.

و كمثال آخر ، نجد شركة برمجيات صغيرة في **أوستن** كانت تعمل على تطبيق مبتكر لتحسين شبكات المبيعات. أراد مايكل التطبيق لكنه لم يرغب بدفع الثمن، فبدأ بالتواصل مع كبار العملاء الذين يستخدمون هذه البرمجية وأغراهم بعروض ضخمة لمقاطعة المنتج. وعندما هوت الشركة تحت الضغوط، دخل بصفة "منقذ"، وضمّها لمملكته، ثم دفن الابتكار الأصلي كي لا ينافسه أحد لاحقًا.

ثم يأتينا مثال جديد ، شركة غذائية عريقة، أسسها مهاجر يوناني، كانت تنافسه على عقود ضخمة مع الجيش الأمريكي. فاوض مايكل البنوك التي تدين لها وقدم تسهيلات بفوائد خادعة، ثم انسحب فجأة وطلب السداد الكامل، فانهارت السيولة، وطُلب الحجز على أصولها، فاشتراها هو بأسعار زهيدة. بعدها أعاد تشغيل المصانع، لكن برواتب أقل وحقوق أدنى، لأنه لا يصرف على الكرامة.

و نختم بمثال لا يقل قباحة ، في أحد أكثر أساليبه خسة، قرر تدمير سلسلة متاجر محلية تنافسه على سوق المواد الاستهلاكية. فاوض مدراء التسويق فيها سراً، وقدم لهم رشاوى ثمينة ليقوموا بتسريب بيانات العملاء وتفاصيل الموردين. ثم أعلن تخفيضات جنونية قبل موسم الأعياد، وضغط على الموردين بعقود احتكار قاسية، ليُحرم

منافسه من البضائع. بعد إفلاسهم، ظهر مايكل بوجه الملائكة ليشتري المحلات ويعيد افتتاحها باسمه، مع شعار : نحن نكمل الطريق.. ونفوز به.

إذن هذا الرجل لا يؤمن بالأخلاق، ولا يجد في مفردة "الضمير" سوى عائق من اختراع الضعفاء. يؤمن أن الحياة ساحة صراع صفرية، غابة لا ترحم ، البقاء فيها للأذكى، لا للأطيب. هو رجل قرر منذ زمن بعيد أن الطيبة ليست فضيلة بل فشل، وأن المبادئ ليست درعًا بل قيدًا ثقيلًا في سباق مكشوف.

أما الأديان، فهي في نظره مشاريع اجتماعية عبقرية اخترعها الكهنة لإبقاء العوام في الطاعة والتبعية، يقول :

= الربّ هو فكرة اختراعها أول فاشل كي يبرر هزيمته.

وكان يردد دومًا أن الكنائس والمساجد والمعابد هي البنوك القديمة التي كانت تبيع الأمل مقابل الطاعة.

نمط حياة مايكل مجنون، ماجن، منفلت. يمتلك طائرة خاصة، ويقضي نهاية كل أسبوع في مدينة مختلفة: مراكش، باريس، طوكيو، فيغاس. يسهر في النوادي الخاصة، يقامر بمبالغ خيالية، يقتني اللوحات النادرة لا لجمالها بل لأن قيمتها ترتفع مع الوقت. يقيس العلاقات بعدد الأصفار، ولا يتذكر اسم مضيفة مرت عليه قبل أسبوع. لا يؤمن بالحب، يرى فيه هرمونات شاردة. ولا يقدس الصداقة، يعتبرها مصالح مؤقتة.

المال عنده ليس وسيلة، بل غاية. كلما أنفق زاد. وكلما خاطر، ربح. كأن العالم خاضع لحساباته وحده. وكان يثق أن كل باب

مغلق له مفتاح إن امتلكت المال الكافي. وأن كل إنسان على وجه الأرض له ثمن، ما عليك إلا أن تعرف العملة المناسبة.

مايكل لم يكن شريرًا ساذجًا، بل شريرًا عبقرياً. وكان يعرف تمامًا أن لا أحد يهزمه طالما أنه يلعب بقواعد لم يضعها الآخرون بعد.
وكان مؤمنًا أن من لا يطأ بأقدامه فوق الآخرين، سيُسحق حتمًا.
وكان يردد عبارته المفضلة أمام مستشاريه :

= الأسماك الكبيرة لا تسبح في جدول واحد.. بل تبتلع الجدول بمن فيه.

هو ذاك: مايكل كراوفورد، التاج الزائف في مدينة التيجان، حيث لا أحد ينجو إلا من تعلم أن يلعب الشطرنج بجنود من نار.

جسد للإيجار

جسد برتبة سيارة أجرة ..

في أحد الأحياء النائية في مدينة **كارلسباد** من ولاية **نيو مكسيكو**، حيث الشمس تلسع الأرض القاحلة كأنها تعاقبها، كانت **سينتيا** تتمشى بخطى ثقيلة وسط شارع ترابي لا يُفضي إلى شيء سوى المزيد من الفقر. كانت في الرابعة والعشرين من عمرها، نحيلة القوام، ذات وجهٍ ساطع كالبدر ليلة تمامه لا يشي بالبؤس الذي تجرّه خلفها. بشرتها السمراء كانت تلمع بلجين الجنوب، وعيناها السوداوتان تبرقان بما يشبه التمرد، لا البراءة. شعرها الطويل كجناح الليل كان متمردًا كطبعها، ينسدل على كتفيها بانسيابية لا تعبّر إلا عن رفضها لصورة الفتاة المتعبة التي لا تعرف إلا التكرار.

عاشت سينتيا في بيت متداعٍ، تؤثثه صرخات إخوتها السبعة، ومائدةٌ لا تكفي الجميع. الأبُ يعمل حارسًا ليليًا في مستودع، والأم تخيط الثياب بأجر زهيد. الفقر لم يكن حالة مؤقتة في هذا البيت، بل قدرًا مستمرًا. ومع ذلك، لم تكن سينتيا من النوع الذي يرضى بالقدر. منذ طفولتها كانت تقول لأختها الكبرى :

= لا أريد أن أعيش وأموت هنا. لا أريد أن أكون نسخة من أمي.

كانت تؤمن بشيء واحد فقط : لا أحد سيمنحها الخلاص سوى نفسها، لكن بأي طريقة ؟ لم تكن تملك شهادة، ولا موهبة لافتة، ولا مهارة تُباع في السوق. لم يكن لديها سوى جسدها، وكانت تدرك منذ مراهقتها أن الرجال ينظرون إليها كشيء مرغوب بقوة. فكرة الثراء لم تكن حلمًا بريئًا بل خطة محمومة.

تركت سينتيا بيتها دون وداع. حملت حقيبة مهترئة وبعض النقود

التي ادّخرتها من عملها الجزئي كنادلة، وسافرت إلى المدينة الأقرب. هناك، وفي أحد النوادي الليلية، التقت بامرأة تدعى **لونا** ، كانت تبدو أنيقة، واثقة، غامضة. عرضت عليها عملاً لا يتطلّب شهادات ولا خبرات : فقط حضور طاغٍ و جسد مغري .. و لم تتردد .. قطفت التفاحة .. فقد كانت الفاكهة الوحيدة في سلة إمكانياتها و لو كانت محرمة ..

كانت البداية سهلة... راقصة تعري تغوي الذكور الهاربين من بؤس حياتهم اليومية و مشاكلهم العائلية و المهنية إلى حضن دافئ أو ملتهب ، عشاء بعدها، ثم لقاء حميمي خاص، فبدأ المال يتدفق. ثياب فاخرة، فندق خمس نجوم، عطر فرنسي .. و بدأت الحياة التي طالما حلمت بها تتشكل ملامحها من حولها ..

ولكن في المرآة... شيء ما بدأ يتغير. القمر بدأ ينخسف و يذوي

تدريجيا خلف ضمير ميت ، وكان في عينيها غربةٌ عن نفسها.

شيئًا فشيئًا توسعت مهامها، أصبحت عضوة في شبكة منظمة للبغاء، تديرها وجوه لا تُظهر نفسها، وتهندس حياة الفتيات كقطع على رقعة شطرنج. كانت السيناريوهات متشابهة : رجال أعمال، سياسيون، أجانب، لقاءات قصيرة، مبالغ طائلة. لم تكن سينتيا ترفض شيئًا، فقد وجدت أخيرًا ما اعتبرته طريق الخلاص.

لم يمر وقت طويل حتى عرفت العائلة بما حدث. وصلهم الخبر كطعنة في الروح. الأم بكت بحرقة، الأب صمت كأن شيئًا مات فيه، الأخوة تنكّروا لها، وأختها كتبت لها رسالة أخيرة :

= قد تفقدين كل شيء، لكن لا تفقدي نفسك.

لكن سينتيا لم تكن مستعدة للتخلي عن المال. رغم أنها في كل مرة كانت تغسل جسدها بعد علاقة جسدية عابرة جديدة ، تشعر كأن شيئًا قذرًا لا يُزال ملتصقاً بجسدها، كانت تبتسم أمام المرآة وتقول لنفسها :

= أنا بخير... أنا ثرية و .... حرة.

لكن نظرة الزبائن كانت تصفعها أكثر مما تلامسها أيديهم. نظرة دونية، مشمئزة، كأنها سيارة أجرة يتناوبون على استقلالها الى محطة الشهوة و المتعة .. لم تكن تلك النظرات تؤلمها فقط، بل كانت تقتل شيئًا في أعماقها. ومع كل صمت تنغمس فيه بعد لقاء، كانت تسمع صوتًا داخليًا يقول :

= أهذا هو الخلاص الذي سعيتِ له .. غيشة جنسية لارضاء شهوة ذكور لا تعرفينهم ؟

و بين خيار العودة إلى الفقر و استرداد نفسها و طهارتها بالتخلي عن هذه الحياة، أو البقاء كدمية مزينة يُدفع ثمنها، لم يكن القرارسهلاً. الليل كان طويلًا وثقيلًا، والوسادة لم تعد مكانًا للراحة بل للشوك.

*****

الخطيئة كفخر و سلم للأعلى ..

في لحظة انكسار، اتخذت سينتيا القرار الذي سيبدّل ملامح روحها إلى الأبد.

قابلت في ذات مرة زبوناً جديداً يدعى **جان** ، زعيم طائفة تُعرف بسرية وطقوسها الغريبة. وجدت فيه ركن ثقة تحتاجه بشدة كي تبوح بهمومها .. لذا بعد أن أفرغ شهوته فيها ، أفرغت قصتها و همومها على مسامعه .. و كأن جان كان بانتظار هذه الحالة ، عرض عليها الانضمام لطائفتهم التي تعبد الشيطان، ليس ككيان خرافي، بل كرمز للتمرّد والقوة والحرية المطلقة من كل قيد.

قال لها :

= هناك، لا أحد يلومك على ما تفعلين... هناك أنتِ سيدة نفسك.. المتعة و الاستقلالية و الحرية سلم يقودك للأعلى لا يهوي بك الى الأسفل ..

وسرعان ما وجدت في ذلك عالمًا يعفيها من شعورها بالذنب، حيث الإباحية ليست عارًا بل وسيلة ترقٍ، وحيث الجسد ليس بضاعة بل شعيرة.

شاركت سينتيا في أول طقس داخل قاعة واسعة من الحجر الأسود، تملؤها الشموع الحمراء ورموز نجوم خماسية مشقوقة، وجماجم

بشرية مرصوفة بدقة. وقفت نصف عارية وسط الدائرة، وقُدّمت باسمٍ جديد :

ليليث الثانية .. لكن من هي ليليث الأولى ؟!

ظهرت ليليث لأول مرة في النصوص السومرية حوالي **2000** سنة قبل الميلاد، وكان يُنظر إليها ككائن روحاني شرير، من الرياح أو العواصف ، و أحيانًا كمخلوق ليلي متمرد كرمز للشهوة و الانصياع لها.

و في ملحمة غيلغامش ، ورد اسم ليليتو ككائن شيطاني يعيش في شجرة مقدسة.

أما في التقاليد اليهودية (التلمود والمصادر الكبالاوية) ، فتُعتبر ليليث أول امرأة خلقها الله مع آدم، لكنها رفضت أن تخضع له، لأنها رأت نفسها مساوية له في الخلق. فتركت آدم وهربت من

الجنة، واختارت الاستقلال والحرية، فاستبدلها الله بحواء..
أصبحت بعدها شيطانة تُغوي الرجال وتؤذي الأطفال حديثي الولادة.

ورد ذكرها في التلمود البابلي بوصفها **أم الشياطين** و **عاشقة الليل**

أنشد الحاضرون تراتيل بلغات غريبة، وقُرئت نصوص تدعو لخلع كل قيد ديني أو اجتماعي أو أخلاقي. أُهديت سينتيا قلادة بشكل قرني الشيطان، ارتدها وأقسمت بدمها أن لا تعود للوراء.

كانت هناك، لأول مرة، محاطة بوجوه لا تزدريها، بل تمدح جرأتها، تمجّد جسدها، وتعدها بمناصب داخل التنظيم كلما أثبتت ولاءها .

وكانت مستعدة.

ظنّت سينتيا أنها وجدت نفسها، لكن ما لم تدركه هو أنها لم تعد تمتلك تلك النفس أصلاً. جسدها بات رمزًا للتسلّط، روحها مسحوقة تحت كعب شيطاني. لم تعد تشعر بالخجل، لأن الخجل مات. لم تعد

تخاف من المجتمع، لأنها تركته خلفها.

لكنها كل ليلة، بعد أن يهدأ صوت الموسيقى الشيطانية، وبعد أن تنطفئ الشموع وتغلق الأبواب... كانت تعود إلى سريرها وحيدة. هناك فقط، يتسلل صوت الطفلة البريئة التي كانت، ويهمس :

= لم نكن نحلم بهذا يا سينتيا... لم نرد هذا.

لكن لا أحد يجيب. فقد ماتت سينتيا التي كانت... وولدت أخرى لا تعرف لنفسها اسمًا سوى الظل، و لا مصير الا النهاية المؤقتة.. أو البداية الحقيقية للسقوط النهائي ..

مخدّر الضمير

متاهة الشك ..

في حي متآكل الأطراف من ضواحي **ميامي /فلوريدا**، حيث تعيش البيوت على أنقاض ذكريات فقراء الحلم الأمريكي، وُلد **فريد**. طفل وحيد لزوجين اجتمعا سريعًا وافترقا أسرع. أب عصبي يضرب أكثر مما يتحدث، وأم باهتة الملامح تعمل في مقهى وتعود منهكة لتحظى بجرعة مخدرات جديدة .. منذ طفولته، لم يشعر فريد بأنه ينتمي، لا إلى جدران البيت، ولا إلى وجوه أهله، ولا حتى إلى اسمه.

حين بلغ الثامنة عشرة، قرر أن يغادر دون وداع. ترك رسالة قصيرة على الثلاجة كتب فيها :

(إن عدتُ، فلن أكون نفسي)

و لم يعد أبداً ..

في شوارع ميامي السفلية، كان فريد يقف على ناصية الحياة، يوزّع الموت مغلفًا في أكياس صغيرة. بدأ كمروج للمخدرات، يتلقى الأوامر ويخشى أن يُضبط أو يُخدع. لكنه سرعان ما تعلم لغة الشوارع : أن تعض قبل أن تُعض، أن تكذب لتنجو، أن تنظر في عين الخطر وتبتسم له. شيئًا فشيئًا، لم يعد مجرد ترس في آلة، بل أصبح يحرك التروس. جمع حوله فريقًا من الصبية التائهين، علمهم كيف يُروّجون، كيف يهربون، كيف يختفون في الزحام.

لم يعد فريد مجرد مروج. لقد أصبح صلة وصل بين مافيا الكوكايين في أمريكا الجنوبية وأسواق ميامي الظمأى. امتلك يختًا فاخرًا، لا تسأل عن مصدره، ولا عن محتواه. كان يقطع البحر

بوجه هادئ، وعينين تخفيان ما لا يُقال. يجلب السم الأبيض من كولومبيا و غيرها ، يمر عبر شبكة معقدة من الرشاوى والتهديدات. وكان يعشق تلك اللحظة حين يرسو في مرفأ ميامي ليلاً، يعرف أن حمولة الشر وصلت، وأنه صار أكثر ثراءً وخطورة.

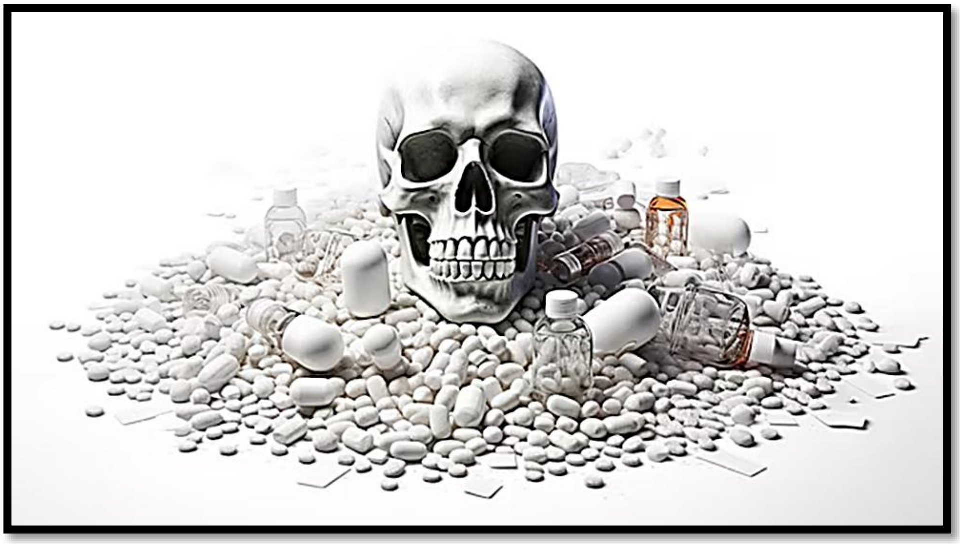

في قاموس فريد، لا توجد كلمات مثل "الذنب" أو "العار". يعيش أيامه كأنه ملك غير متوَّج على مدينة الضوء والظلال. يقامر في نوادي سرّية، يشرب حتى يترنح، يتعاطى الكوكايين كمن يحتسي القهوة، يشارك في حفلات صاخبة تبدأ بعد منتصف الليل ولا تنتهي إلا بانبلاج الخيبة.

يحب ركوب الأمواج، لا حبًا في الرياضة، بل لأن البحر وحده كان يسمع هديره الداخلي. حين يقف على لوح التزلج، يشعر كأنه يسحق العالم تحت قدميه. كان مهووسًا بالسيطرة، حتى على الموج.

كان فريد يظن أن الكون قد أقيم على مقاسه. يتلقى المكالمات من الكبار في المافيا ويأمر الأصغر منه كأنه جنرال. يتحدث عن الشرطة بسخرية، وعن الموت بلا مبالاة. في نظره، الجميع أدوات في لعبة كبيرة، هو وحده من يفهم قوانينها، لأنه كتبها بنفسه.

كان يقيم في شقة زجاجية تطل على المحيط، لا ستائر فيها، لأنه لا يخشى شيئًا. يمتلك ثلاث سيارات، اثنتين للعرض وواحدة للهروب. وعندما يُسأل عن حياته، يجيب بابتسامة ساخرة :

= أنا أعيش حياة الخالدين، فلا تسألني عن المستقبل، لأنه لن يختلف عن اليوم.

فريد ليس ثوريًا، لكنه يمقت القيم الاجتماعية. يرى العائلة قيدًا، والدين خرافة، والقانون مزحة .. يقول :

= وُضع القانون لحماية الجبناء، أما نحن، فنبني إمبراطوريتنا بالفوضى.

هذا التمرد لم يكن نتيجة ظلم، بل نتيجة فراغ. كان يخشى الفراغ أكثر من السجن، لذلك يملؤه بكل شيء : المخدرات، النساء، الأصوات العالية، الأدرينالين. هو حيوان حضري، لا يسكن الغابة، بل يصنعها حيث يكون.

في داخل فريد، لم يكن هناك فراغ روحي، بل حفرة سحيقة حفرتها سنوات الطفولة بإزميل الخذلان، ثم نمت فوقها أعشاب الشك كالأشواك. لم يكن ملحدًا لأن الفكر ساقه لذلك، بل لأن الحياة صفعت فيه كل فكرة عن الرحمة. لم يجد الله في عيني والده حين انهال عليه ضربًا، ولا في نظرات أمه حين تنطفئ تحت وطأة المخدرات. نشأ، وهو يتأمل صلوات البؤساء تتبخر في هواء ميامي الحار، بينما لا ينزل شيء من السماء سوى المطر... واللعنات.

في طفولته، كان يحدق في سقف غرفته، يسأل : إن كان الله موجودًا فعلًا، فلماذا يختبئ هكذا ؟ وإن لم يكن، فمن خلق هذا العبث المذهل ؟ كان يبحث عن المعنى كما يبحث الغريق عن حبل، لكن كل ما وجده كان الحبال مشنوقة على رقاب الحالمين.

منذ صغره، شعر أن الإيمان ليس أكثر من تعزية جماعية لمن لا يملكون شيئًا، وأن الأمل ترف لا يتقنه الفقراء إلا في الأغاني.

الشك عند فريد لم يكن لحظة، بل تراكم. تراكم على شكل خيبات، وخسائر، وموت لم يجد فيه عدلًا. حين رأى صديقًا بريئًا يُقتل في تبادل نار عبثي، قال :

= لو كان هناك إله، لكان في الجهة الخطأ من التصويب.

وحين رأى متشردًا يموت على الرصيف بلا جنازة، تساءل :

= أين ذهبت عدالة السماء ؟

لم يجد أجوبة، فقرر أن يصير هو الجواب.

الحياة بعد الموت ؟ عند فريد، مجرد خرافة يلوّح بها رجال الدين كأنها جزرة أبدية. لا يوجد شيء بعد اللحظة، ولا حساب، ولا بعث.

= نحن كشرارة في العدم ..

كان يقول ..

= تضيء لحظة، ثم تنطفئ دون أن تتذكر أنها اشتعلت.

الموت ليس بابًا، بل حائطًا ينتهي عنده كل شيء. لم يكن يخافه، بل يزدرى فكرته، لأن ما لا يُعاش لا يستحق الخوف منه.

أما "القدر"، فكان في نظره كذبة مهذبة. لم يؤمن يومًا أن شيئًا مكتوبًا ينتظره، بل كان يرى أن الحياة ككازينو: من لعب جيدًا ربح، ومن خسر فهو إما غبي أو فقير الحظ. لم يركع يومًا لصلاة، لأن الركوع عنده شكل من أشكال الاستسلام، ولأن اليد التي لا

تمسك زمام الحياة لا تستحق أن تُرفع إلى السماء.

كان فريد يضحك حين يسمع الآخرين يقولون :

= الله معنا.

يتساءل ساخرًا :

= أين هو إذًا ؟ مع من كان حين فُجر الأمل تحت أقدام الأطفال ؟ مع من كان حين تحوّل الأبرياء إلى مجرد أرقام في نشرات الأخبار ؟

وإن أجابه أحدهم بإيمانٍ خاشع أن في البلاء حكمة، ردّ عليه بابتسامة لاذعة :

= أي حكمة تُستخرج من حريق ؟

لا يحب النقاش، لأن الإجابات الدينية تبدو له حيلًا ذكية لتمويه الغموض، ويكره العزاءات الجاهزة : "الله يختبرك"، "كل شيء بقضاء"، "الصبر مفتاح الفرج"... كلمات يراها تُصنع كالمعلبات، معمدة بماء الضعف، ومغلفة بورق الإيمان العطِر.

كان يرى أن القيم كلها، من الصدق إلى التضحية، ليست قوانين سماوية، بل صفقات اجتماعية تقايض الأفراد على استقرارٍ زائف. وكان يزدرى أي فضيلة لا تدرّ عليه مكسبًا، ويعتبر الخير وهمًا اخترعه الضعفاء كي يبرروا فشلهم في النجاة.

فريد لا يكره الإله بقدر ما يراه عديم الجدوى. إن وُجد، فهو بعيد، متعالٍ، بارد كالنظام الفيزيائي، لا يسمع ولا يُعنى. وإن لم يوجد، فلا شيء تغيّر ..

إنه، في العمق، يعيش بعقل يصرخ : لا معنى، لا عدالة، لا وعد.

كل شيء مجرد فوضى جميلة تُدهشنا للحظة، ثم تغرق في صمت العدم.

في عيني فريد، لا جنة تنتظرنا، ولا جحيم، بل حياة واحدة علينا أن نفتك بها ما استطعنا، حتى وإن استبدلنا إنسانيتنا بمخالب. لأنه حين تموت، لن تسأل عنك السماء، ولن تنصفك الأرض. ستموت كما تموت قطة على الرصيف : بصمت، بلا صلاة، بلا خلود.

وهكذا كان فريد : إلحادُهُ ليس موقفًا عقليًا فحسب، بل جرح وجودي، تمزق بين سؤال بلا جواب، وإجابات بلا حقيقة.

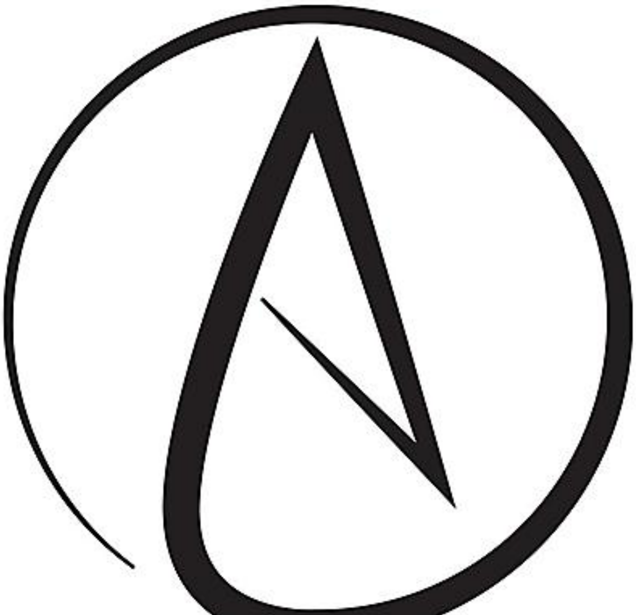

بلغ فريد التاسعة والعشرين وهو يعتقد أنه وصل. يظن أن لا شيء فوقه، ولا أحد خلفه. يتنفس كأنه يملك الهواء، يبتسم كأن الحياة مدينة باسمه. لم يكن يعلم أن السقوف الزجاجية تُرى من الأسفل فقط، أما من فوقها، فيكون السقوط أقسى وأقرب مما يتوقع.

لكنه لا يرى ذلك بعد. ما يزال يتراقص في دوامة المجون، غارقًا في وهم السيطرة، ناسفًا كل جدار يمكن أن يعيده إلى إنسانيته.

هو الآن في أوج مجده المسموم... بانتظار الشرخ الأول.

فهذا هو فريد، سيد اللاشيء، وملك الموجة التي سترتد عليه قريبًا و تغرقه ..

مهام الماجوس

اللقاء الأول بين رؤوس النجمة ..

لم يكن الليل في ذلك اليوم عاديًا، بل كأنما تواطأ مع قدرٍ خفي لنسج أول خيط من الحكاية. في مدنٍ متباعدة، وفي ساعات مختلفة، تلقى كلّ من الخمسة المختارين رسالته السوداء.

في **نيويورك**، وبينما كان **باولو** يُدخّن سيجارته على شرفة منزله المطل على نهر هدسون، وجد صندوقًا صغيرًا موضوعًا على حافة الدرابزين. لم ير أحد يضعه. فتحه بحذر، فوجد بداخله خاتمًا أسود من حجر الأونيكس، ورسالة مكتوبة بخط يدٍ شديد الأناقة :

(حين تعتلي العتمة العرش، سيُطلب من الملك أن يُبايع. كن هناك. سان فرانسيسكو كنيسة الشيطان ، الليلة الموعودة.)

و على ظهر الرسالة كتب التاريخ و الموعد بدقة ..

في **لوس أنجلوس**، كانت **سامنتا** تستعد لتصوير مشهدها الأخير في فيلمها الجديد، حين دخل أحد المساعدين يحمل مغلفًا بلا اسم. قالت له مديرة الإنتاج إن لا أحد يعرف من أرسله، لكنه يحمل توقيعًا نادرًا: نجمة خماسية يحيط بها هلالان. فتحت المغلف، فوجدت فيه قلادةً صغيرة تنبض بدفءٍ غريب، ومعها بطاقة تقول :

(من يحلم أن تبتلعه السماء، عليه أولًا أن يحترق كالنجم. سان فرانسيسكو، كنيسة الشيطان ، منتصف الشهر.)

في **ميامي**، وجد **فريد** الورقة في جيب سترته الجلدية، رغم أنه لم يلبسها منذ أيام. الكلمات مكتوبة بلغةٍ شعر أنه يعرفها من قبل أن يقرأها :

(في الشك يقيم الإله الثاني، تعال إلى هناك حيث الحقيقة عارية .. سان فرانسيسكو – كنيسة الشيطان.)

وفي شقته الزجاجية في **دالاس**، كانت **مايكل** يقلب تقارير شركته، حين توقّف حاسوبه عن العمل فجأة. ظهرت على الشاشة رموز غريبة، ثم اختفت، ليبقى سطرٌ واحد :

(المال خادم جيد، لكنه سيدٌ أقوى. الترقية تنتظرك .. سان فرانسيسكو – كنيسة الشيطان.)

أما **سينتيا**، فاستيقظت في منتصف الليل على صوت يشبه صوت والدتها يناديها. فتحت باب غرفتها، فوجدت ظرفًا أحمر موشومًا بقطرات لزجة كأنها دم. حملت الظرف، ورائحة بخور غامضة تتصاعد منه ، فتحته بأصابع مرتجفة لتجد رسالة نصها :

(العريّ طقس، لا عار. والجسد معبر. النجمة بحاجة إلى ضلعك الذي خلق منها آلاف الذكور التواقين للمتعة .. سان فرانسيسكو – كنيسة الشيطان)

هكذا، وفي ظرف اثنتين وسبعين ساعة، تلقّى الخمسة دعواتهم المختلفة، كلّ على طريقته. ما جمعهم لم يكن الورق، بل نداء خفي يلامس أعماقًا لا تراها المرايا.

كان القدر قد قرر أن يجمعهم في سان فرانسيسكو، مدينة الضباب والأسرار. لم يعرف أحد كيف تمت الدعوة، ولا كيف وصلوا. لكنهم، واحدًا تلو الآخر، كانوا يتجهون إلى الكنيسة، كأنما منقادين بخيطٍ لا يُرى، حريري الملمس، شيطاني المصدر.

لم تكن كنيسة الشيطان في سان فرانسيسكو كنيسة على الإطلاق، بل معبدًا هجينًا بُني من عظام المعمار القوطي وروح الخراب. بوابتها الأمامية تعلوها نافذة زجاجية ملونة تمثل ملاكًا يسقط نحو الأرض بأجنحة محروقة، وتحت النافذة عبارة محفورة :

(النور لا يولد إلا من احتراق الظلام.)

السلالم الداخلية ملتوية كأمعاء شيطان يعوي ، والجدران مرسومة برموز لم تُخلق للعين البشرية. كانت القاعة الكبرى مستطيلة، عارية من كل صنم، لكن مُغطاة على الأرض بنجمة خماسية رسمت بحبر أسود قاتم، وفي مركزها حرف **A** بأنياب بارزة.

الشموع لا تضيء المكان، بل تظلمه أكثر، فتجعل من كل ظل مخلوقًا يوشك أن يتكلم. وفي الركن الشرقي، جلس العجوز، **ماجوس الكنيسة**، متكوّرًا على عرش حجريّ محاط بأصوات خافتة لا تأتي من فمه، بل من المكان ذاته.

كان الماجوس كمن نُحت من رماد. عظامه بارزة كقضبان، وجسده كأنه لا يحمل إلا الروح التي تخلى عنها من عقود و لا يدري أنها متشبثة بجسده أكثر فأكثر. عينا الرجل متوهجتان كجمرة حقدٍ أزلية، ولحيته تتدلى كشجرة علق فيها ألف زمن. حين يتكلم، لا يُسمع صوته بل يُشعر، كأن أحدًا ينقش الكلمات على الصدر لا الأذن.

قال دون أن يتحرك :

= أهلاً بكم، أبناء السقوط. جئتم لأنكم استحققتم الترقية.

ثم راح ينظر إليهم واحدًا واحدًا.

باولو... السلطة .. القسوة التي تُحب.

سامنتا... الجسد الذي صار مذبحًا.

مايكل... الذكاء الجشع للمال، العقل الذي يلتهم.

سينتيا... الانكسار أمام الغريزة الذي صار نشوة.

و **فريد**... الشكّ الذي أصبح مشعوذاً ..

رفع سبابته النحيلة نحو النجمة :

= أنتم الآن رؤوسها .. كل واحد منكم ضلعٌ في هذه المنظومة التي سنرفعها في سماء العالم .. الآن سيتم تعميدكم و ترقيتكم .

في تلك الليلة كانت المدينة تحت وطأة ضباب كثيف، كأن البحر قد زفر روحه على اليابسة، وغابت نجوم السماء خلف وشاح رمادي. أما داخل الكنيسة، فقد احتدمت النار. لا نار الخشب، بل نار القلوب التي اشتعلت بوقود الوعود الجديدة. خمسة أرواح تلامست دون أن

تلامس، تقاطعت عند مفترق ليس للعودة منه سبيل.

جلسوا متقابلين حول الدائرة، وبينهم الماجوس العجوز، شيخ من زمن آخر، وجهه محفور كالصخر، وعيناه منطفئتان كأن فيهما ليلًا أبديًّا، ورغم ذلك، كان حضوره أكبر من المكان. لم يكن يتكلم كثيرًا، بل ينظر، وحين يتكلم، تنصت الأرواح قبل الآذان.

بدأ بالحديث، صوته كجرسٍ مكسورٍ يرنّ من قاع قبر :

= أنتم، رؤوس النجمة. لكل منكم شهوة كبرى، لم يعد يخجل منها، بل صارت وقوده. أنتم من عبدتم أنفسكم أولًا، ثم عبدتم من يعبدكم.

رفع يده المرتجفة، وأشار إلى مركز الدائرة، حيث حرف **A** يتوهج في مركز النجمة كشعار للإلحاد المتجذر. وحينها، ارتجّ الضوء في الشموع، كأن الهواء قد تغيّر.

ثم التفت إليهم واحدًا واحدًا...

سامنتا، تلك التي باعت جسدها لتمتلك وجهًا على الشاشة، رآها

الماجوس كمرآة فارغة تنتظر من يملأها بالانحطاط. كان يعرف أن الشهرة التي تطاردها لم تعد وسيلة، بل صارت هوية. لم تعد تريد أن تكون ممثلة، بل معبودة، ولو من حجارة.

أما **سينتيا**، ذات الجسد الموشوم بأسماء الزبائن أكثر من أحلامها، فلمعت عيناها وهي تنظر للماجوس، كأنها وجدت أخيرًا المذبح الذي يليق بتضحياتها. كانت تعلم أن المجتمع لفظها، فاختارت أن تتحول إلى سُمٍّ في عروقه.

فريد، المتكئ على كرسيه بتكاسل آلهة الليل، لم يكن يبالي، لكنه لم يكن غافلًا. عيناه نصف مغمضتين، كأنه في سباق بين الكوكايين والتنوير. كان يرى في الكنيسة مسرحًا جديدًا، لا قواعد له، لا قضاة، ولا نار بعد الموت، بل مجدًا في الدمار.

و **مايكل**، رجل البزنس الذي صار يحكم مدنًا من خلال صفقات، لم يخفِ ابتسامته الساخرة. هو لم يأتِ ليعبد أحدًا، بل ليشتري مقعدًا على طاولة الآلهة، حتى لو كانت سوداء. في عينيه، لم تكن هذه الكنيسة سوى شركة جديدة، من نوع لم يعرفه السوق بعد.

وأخيرًا **باولو**... رجل المافيا، الذي يعرف كيف يُطعن وكيف يطعن، رأى في الماجوس شريكًا طبيعيًا. هذا ليس دينًا جديدًا، بل سلطة أقدم من الطوائف، قوة لا تَطلب منك أن تتوب، بل أن تكون من أدواتها.

رفع الماجوس كأسًا مظلمًا من الفضة، نقش عليه تنين يلتهم الشمس، وقال :

= أنتم لم تعودوا بشراً. أنتم الآن **سحرة**. رتبتكم لم تعد **شيطانيًا** فقط، بل أصبحت تُمثّل إرادة الظل.

فرتب الكنيسة تتدرج على الشكل التالي :

- **شيطاني** : هذه هي الدرجة الأولى والأولية للأعضاء الجدد في كنيسة الشيطان.
- **مشعوذ/ساحرة** : هذه الرتبة تشير إلى مستوى متقدم من الالتزام والمعرفة، مع التركيز على الممارسة العملية للسحر والطقوس.
- **كاهن/كاهنة** : هذه الرتبة تدل على دور قيادي وشخصية مؤثرة داخل الكنيسة، مع مسؤولية توجيه وإرشاد الآخرين.
- **كاهن أعلى/كاهنة أعلى** : هذه الرتبة تمنح للأفراد الذين يظهرون تفوقًا في القيادة والتفاني، وغالبًا ما تكون مرتبطة بمسؤوليات إدارية وتنظيمية.
- **ماجوس/ماجا** : هذه هي أعلى رتبة في كنيسة الشيطان، وهي مخصصة للأفراد الذين يمتلكون معرفة واسعة وفهم عميق للفلسفة الشيطانية، وغالبًا ما يمارسون دور المرشد الروحي

ثم بدأ توزيع المهام الجديدة مع ارتقاء سلم الرتب ...

كل منهم أُعطي مهمة. **سامنتا**، أن تستدرج نجمات صغيرات في هوليوود إلى المنظمة. **سينتيا**، أن تفتح بيتًا سريًا للبغاء يُستعمل

لاستقطاب رجال النفوذ. **فريد**، أن يوسّع دائرة التوزيع لتغرق جامعات الجنوب في السموم .. **مايكل**، أن يستثمر في مؤسسات خيرية تُخفي تحتها عمليات غسل أموال وعقود ظلال. أما **باولو**، فطُلب منه التسلل إلى صفقات السلاح الموجهة لأفريقيا، حيث الحروب تغذي الموتى وتُثري الأحياء.

وافق الجميع، لا تردد. بل شكر، وانحناءات احترام... وسعادة لم يُعلن عنها، لكنّها كانت تقطر من نظراتهم. كانوا يعرفون أنهم في طليعة عهد جديد، حيث يصبح الشرّ لا خطيئة، بل شرف.

في ختام الطقس، نفخ الماجوس الشمعة الوسطى، فغمر الظلام القاعة كعباءة أبدية. لم يتكلم أحد. خرجوا تباعًا، وكل واحد يحمل شرارةً جديدة تحت جلده، تشتعل حين يصل إلى المدينة.

و كانت نجمة الشيطان ترتفع، لا في السماء، بل في قلوبهم.

خرجوا من الكنيسة ولم يكونوا كما دخلوها. لم تكن الأبواب التي عبروها من خشب، بل من جلدٍ قديمٍ مأخوذ من الكتب المحرّمة، ومكتوب عليها بالأظافر لا بالحبر. لم يكونوا خمسة أشخاص، بل خمسة أنوية معتمة، تمشي على أرصفة الضوء، تنثر العتمة بخطواتٍ محسوبة.

في شوارع سان فرانسيسكو، حيث يلتقي الحداثي بالمحتضر، كان كل واحدٍ منهم يسير تحت مصباحٍ لا يُنير، بل يراقب.

مايكل عاد أولاً إلى ناطحة سحابه في دالاس. لكن شيئًا فيه كان قد تغيّر. جلس أمام شاشات السوق المالي كما يفعل كل صباح، لكن الشاشات لم تعد وسيلته الوحيدة لقراءة السوق. صار يشعر بالاتجاه

قبل أن يُرسم. كأن المال نفسه بدأ يهمس له. في المرآة، رأى وجهه أكثر حدة، أكثر هيبة. ربما هي عيناه، أو ربما هو ظلّ القرين خلف عينيه. اتصل بمستشاريه وقال :

= نبدأ غدًا بإنشاء صندوق استثمار جديد... باسم القدّيس، ونغسل فيه أوساخ هذا العالم تحت راية الفضيلة.

ثم ضحك... ضحكة سخرية لم يسمعها من نفسه من قبل.

سامنتا عادت إلى لوس أنجلوس، وعيناها تلمعان كقطتين أمام فرائس واهنة. أول ما فعلته أنها مزّقت صورة والدتها من ألبوم قديم، ثم ارتدت فستانًا أسود يكشف أكثر مما يخفي، واتجهت إلى نادٍ خاص للمخرجين والمنتجين، كأنها ذاهبة إلى كنيسة أخرى.

كانت تعرف تمامًا ما تفعل. لم تعد تحاول أن تُقنع أحدًا بموهبتها، بل بقدرتها على نقل الرسالة الجديدة. في عينيها كانت نار طفولية أُطفئت مرارًا، لكنها اشتعلت الآن بطريقة لا أحد يستطيع إخمادها.

في كل مشهد أدّته بعد تلك الليلة، أدخلت رموزًا صغيرة : إيماءة يدٍ، قلادة على شكل نجمة مقلوبة، كلمات عابرة في سيناريو تُكتب بلا وعي لكنها تمرّ. لم تكن تمثّل فقط، بل تنقل إشارةً إلى القطيع... من صارت الآن رسولتهم.

سينتيا عادت إلى نيو مكسيكو، لكنها لم تعد سينتيا الفقيرة المتمردة. بل صارت الساحرة، كما كانت تحب أن تسمّي نفسها. افتتحت نادٍ سريًا للّذة المطلقة، لا يخضع لأي قانون، فيه الجنس تجارة، لكن الروح هي الثمن الحقيقي.

لم تكن تبحث عن المال هذه المرة، بل عن السلطة التي تمنحها السقطة. كانت تؤمن أن كل شخص يسقط في فراشها، يسقط بعدها

في يد الكنيسة. تدير المكان كما تدير راهبةً ديرًا، لكنها بدل أن تسمع الاعترافات، كانت تطلب الانحدار الكامل... كوسيلة تطهير، كما تقول.

فريد عاد إلى ميامي بشعره المبعثر، وقميصه نصف المفتوح، لكنّ في عينيه شيء من الصقيع. لم يعد يروّج المخدرات فقط، بل صار يُحوّل الشوارع إلى معابد متنقلة. علّم الأطفال كيف ينسون، كيف يكرهون القانون، كيف يتشككون بكل شيء.

أسّس دارًا للتجربة ، كما أسماها : مبنى قديم فيه غرف مليئة بالضجيج، بالدخان، بالموسيقى الصاخبة المنحرفة، والمخدرات المجانية لمن يجرؤ. لم يكن يبيع السمّ فحسب، بل يزرع عقيدة الشكّ المطلق. جعل من المخدرات تعميدًا، ومن الجرعة الأولى عهدًا جديدًا.

باولو، سيد المافيا، عاد إلى نيويورك... ولم يكن أحد يعلم أنه عاد. لم يُعلن ظهوره، لكنه بدأ يغيّر في الخفاء. زار أساقفة فاسدين، محامين عراهم المال، قضاة على حافة الظل. لم يقتل أحدًا، بل جعلهم يوقعون بمحض إرادتهم.

افتتح مؤسسة وهمية تحت اسم "السلام الأسود"، تدّعي نشر الثقافة والتعايش، بينما كانت شبكةً لتسليح فصائل متمرّدة في القارّة السوداء. كانت شاحناته تمرّ من تحت شعارات اليونيسيف، لكنّها محمّلة بأسلحة، وموقّعة من مسؤولين حقيقيين.

وفي مكان ما، غير محدد، في الطابق الأسفل لكن ليس في الأرض، بل في الوعي البشري، جلس الماجوس وحده أمام مرآة. لم يكن يرى وجهه. بل وجوههم الخمسة.

ابتسم عن أنياب صفراء وقال بصوت يكاد لا يُسمع :

= نجحنا... الآن لن يُطفأ الله، بل سيُنسى أكثر فأكثر ..

عظات في وجه العاصفة

طيب العود ..

في زمنٍ طغى فيه الزيف حتى على نبرات الصلاة، بزغ نجم **القس باتريك** لا من كنيسة بأول الفخمة ولا من منبر مرصع بالذهب، بل من صدع في الجدار، من فجوة في جدار القبول العام، حيث تنسلّ الحقيقة كخيط ضوءٍ في عتمةٍ متعمدة. لم يكن واعظًا من أولئك الذين يطرّزون عظاتهم بالخنوع، بل كان لسانه كالمحراث يشقّ تربة العقول الجامدة، ولا يزرع فيها سوى بذور الوعي النقي.

حين اعتلى منبر كنيسته في تلك العظة الشهيرة عن مخمس الشيطان ، لم يكن يرمي إلى الصدمة، بل إلى إيقاظ نائمين طال سباتهم. ما قاله لم يكن مجرد تفسيرٍ لرمزٍ منحرف أو تنديدٍ بعقيدة منحرفة، بل كان فضحًا صريحًا لوجه العالم المقنّع، وتشريحًا دقيقًا للابتسامات المسمومة، للأناشيد المزخرفة بعبارات التحلل، وللنقوش التي بدت أول الأمر زينة، فإذا بها مفاتيح لبوابات الخراب.

ضرب على وترٍ لا يحتمله إلا القلب العاري من الخوف. وكان طنين الحقيقة، في زمنٍ يصمّ أذنيه بالترف، أشبه بطلقٍ ناري في معبد صمتٍ عتيق.

لم تمرّ العظة مرور النسيم، بل جاءت كالإعصار. تهشّمت الأقنعة، وارتبكت القوى التي لم تكن قد توقعت أن تُفضح رموزها بهذا الصفاء. اشتعلت ضده حربٌ لم تكن تقليدية. نيرانها كانت كلمات مشوهة، وذخائرها صورٌ ملفّقة، ورايتها ادعاءات تُغزل في السراديب. وكل ذلك لم يكن صدىً للعظة، بل انعكاسًا لمدى اختراقها.

وامتدّت ألسنة اللهيب، تهدد وتتوعد، في رسائل مبطّنة وأخرى

صريحة. لم تكن كنيسة الشيطان تهاجمه وحسب، بل كانت تكشف عن خوفها. فحين يرتعد الشر من صوتٍ مفرد، فذلك لأن فيه من النور ما يفضح كل عتمة.. هددته بالموت .. حاولت تكميم فمه .. و كل شيء ما نفع ..

فالغريب في النار أنها لا تلتهم إلا الهش، أما الصلب فتصقله. ومع كل هجوم، كانت شهرة باول تتصاعد، لا كاسم، بل كندبةٍ مشتركة في ذاكرة من سمعوه. ازداد عدد القادمين إلى عظاته، لا بدافع الفضول، بل لأنهم لمسوا في خطابه خلاصًا خفيًا، لأنهم وجدوا في صدقه مرآة لا تخون انعكاسهم.

ولم تكن الكنيسة بعد ذلك بيتًا يُزار، بل تحوّلت إلى مزار داخلي في قلوبهم، مكان لا تحدده الجدران، بل الإيمان بأن هناك من ما زال يقول ما يجب أن يُقال.

في أحد القيامة، ومع صوت الأجراس الذي بدا وكأنه يقطر من السماء، وقف باتريك من جديد. كان الوقوف بحد ذاته حدثًا. الهواء نفسه بدا مختلفًا، محمّلًا برائحة ترقب لا تُشم، بل تُحَسّ. المصلّون لم يجلسوا كجماعة، بل كأفراد أُعيد وصل أرواحهم بخيطٍ مشترك من الرجاء. لم يكونوا جمهورًا، بل شهودًا على نبضٍ مقدّس ينبض من بين شفاه الحقيقة.

وفي صعوده إلى المنبر، كان كمن يصعد درجًا داخليًا نحو جذرٍ دفين في الذات البشرية. لم يتحدث، بل سال من كيانه وعيٌ خام، شعورٌ بأن العالم يترنح لا تحت وطأة الشر، بل من فراغ الخير.

كان حضوره ذاته موعظة، ليس في نبرة صوته، بل في الثقل الذي يحمله، في قدرته على أن يكون صامتًا دون أن يُفلت المعنى، وعلى أن يشير دون أن يصرّح، وعلى أن يُربك دون أن يصرخ.

في تلك اللحظة، لم يكن يقف على منبر، بل على حافة هاوية.

من خلفه الزمان المريض، ومن أمامه أرواح تتشبث بالخلاص.
كان جسده واقفًا، أما روحه فقد كانت تحترق. لكنه لم يكن رمادًا، بل طيبُ عودٍ... ازداد عبقًا كلما ازدادت النار.

وهكذا، لم تكن تلك الموعظة مجرد كلمات تُلقى، بل كانت بمثابة طقس ولادة جديدة للحقيقة، للإيمان، وربما... للنجاة.

قال بصوته المفعم بالخشوع :

= عظتي اليوم تأتي كإجابات على أسئلة كثيرة بلغتني .. أسئلة البالغين كما هي أسئلة أبنائهم المراهقين و حتى الأطفال .. و سأتطرق فيها إلى ثلاث أفكار غاية في الحساسية و الأهمية :

النقطة الأولى ، هل الله موجود فعلاً أم أن للإلحاد وجهة نظر منطقية في رفض وجوده .. ؟

و **النقطة الثانية** ، لماذا الله يرزق البعض دون الآخرين ، و لماذا لا يرزق الجميع بدون حساب و هو يملك خزائن السموات و الأرض ؟

أما **النقطة الثالثة** ، لماذا يجعلنا الله نتعب قبل امتلاك النعمة ؟ هل هي رغبة في رؤية ضعف البشر ، أم شيء نبيل آخر نجهله ؟

صمت قليلاً في حين العيون كلها مصوبة عليه بثبات دون أدنى التفاتة و كأنه أسطورة الميدوزا الإغريقية ، ثم استطرد :

= نبدأ بأولى النقاط ، يصنف الملحدون بشكل عام إلى نوعين :

- **الملحد الموجب** : يستعين بنظريات علمية و فلسفية لإثبات عدم وجود الله ..
- **الملحد السالب** : يكتفي فقط بعدم الإيمان بوجود الله نظراً لعدم قناعته بالأدلة التي يقدمها المؤمنون بوجوده أو بطبيعة الأديان ..

و بناء على هذا التصنيف يمكننا تقسيم ذرائع الملحدين إلى نوعين بدورها :

أولاً تأتينا **الذرائع العلمية** التي تقدس المادة و تؤمن بأزلية الكون و بتطور الإنسان من خلية وحيدة : و الحقيقية الغريبة و المثيرة هنا أنّ جميع هذه الذرائع لا تتناقض إطلاقاً مع وجود الله ، فالله :

- جعل العلم و بالتالي المادة مقدّسين و أمرنا باتباع قوانينهما لتفسير ظواهر الحياة من حولنا ، فالله خلق الكون وفق قوانين علمية تجري بثبات مستمرّ و الدين ينبغي ألا يتعارض مع العلم كما أكد الخالق .. و لا ننسَ مقولة نبي الإسلام محمد الشهيرة و التي تختصر كل شيء عندما سأله أحد الناس : (هل أترك ناقتي و أتوكل) ، فأجابه : (اعقلها و توكل) أي اربطها و اتبع قوانين العلم ثم توكل على الله ..

- يصف نفسه في الأديان بأنه أزلي فيقول عن نفسه بأنه (الأول بلا بداية) فلماذا يسهل علينا الأيمان ببساطة بأنّ الكون أزلي بلا بداية و يصعب علينا الإيمان بأن خالق الكون أزلي بحد ذاته كهذا الكون بالضبط **!؟**

- لم ينفِ تطور الإنسان ، فالتطور البشري لا يتعارض مع فكرة الخلق ، بل قد يكون وسيلة إلهية لتكوين الإنسان و لا ننسَ أن الإنسان يتكون حرفياً من خلية وحيدة في البدء (البويضة الملقحة) و يمر خلال تطوره كجنين بمراحل يكون فيها قبيح الشكل و ناقص التكوين حتى يكتمل نموه تماماً و يولد أخيراً كطفل جميل محبب للقلوب ، أوليس هذا هو جوهر عملية التطور **؟!** و بجميع الأحوال ما يهمّ فعلياً أنّ النتيجة النهائية للإنسان سواء خُلق دفعة واحدة أو عبر عملية تطورية هي كونه (في أحسن تقويم) و لا يمكن إطلاقاً للصدفة و العمليات العشوائية أن تنتج هذا المخلوق الفريد كمعجزة ربانية حقيقية بحد ذاته..

ثم تأتي **ذريعة عدم الاقتناع بمضمون الأديان** : لاشك أن الاختلافات الجوهرية في بعض النقاط بين الأديان و التشويه الذي طال نقاطاً أخرى كثيرة عبر الزمن على يد الحكام و كهنة الدين ، خلقت بذرة شك كبيرة في نفوس بعض البشر تجاه هذه الأديان ، لكن هذا لا يبرر الإلحاد أبداً ، فلا يمكننا أن نغفل عن أربع حقائق هامة في هذا الصدد :

- تلاعب البشر بالأديان بعد موت الأنبياء كما قلنا و سوء فهم الدين يفسّران الجانب المظلم للأديان ، و القصور هنا هو قصور بشري و ليس سماوي ..

- للأديان وجه جميل آخر لا يمكن نسفه و تجاهله ، يبني الإنسان و المجتمع و ينظم شؤون الحياة في كافة النواحي و يربط وجودنا بغاية ذات معنى بعد الموت ..

- الأهم من ذلك كله أن الإيمان و التدين ليسا وجهين لعملة واحدة .. فإن أنت لم تعجب بمضمون الأديان فذلك لا يعني أنّ الله غير موجود بل هذه مغالطة كبيرة بحد ذاتها .. فيمكنك أن تكون مؤمناً بوجود خالق و غير متدين مثلاً !!

- لا ننسَ بأنّ الله رحيم و ديمقراطي مع عباده فلا يجبرهم على الإيمان بالقوة و التهديد كما يصور بعض كهنة الدين ، بل ترك للبشر حرية المعتقد ، بل حتى حرية عدم الإيمان بوجوده فقال بكل وضوح في القرآن الكريم :

(من شاء فليؤمن ، و من شاء فليكفر)

فالله واثق من (إبداع و إتقان خلقه) و من (عظمة العقل الذي منحه للبشر) و هذان العاملان كفيلان عبر التفاعل مع بعضهما بالوصول بالإنسان إلى معرفة خالقه و المسألة مسألة وقت و اختبارات مع بعض المعجزات و الحوادث غير المفسرة لا أكثر و التي تنتهي بالإنسان إلى الإيمان بوجود قوة غيبية خلقت الكون و

تسير أحداثه كما خلقته كإنسان و تسير حياته الشخصية بنفس الوقت .. دون أن نغفل أهم حقيقة في الحياة بأنّ غاية الله ليست إقناع البشر بوجوده فهو أجلّ و أكبر و أعلى من ذلك ، بل بناء الإنسان و إعداده كي يصبح مؤهلاً للحياة في دار البقاء بعد القيامة

و في الحقيقة و كختام لهذه النقطة ، ما من إنسان ينكر وجود الله بسبب أدلة منطقية دامغة يقّدمها بل أغلب حججه و ذرائعه لا تتناقض مع وجود الله بالأساس (من قوانين العلم التي تحكم الكون إلى التطور إلى التشكيك بالأديان) ، بل إلحاده قائم على خلفية :

- ظروف صعبة عاشها في طفولته أو في حياته اللاحقة بسبب مدّعيي التدين فنفروه من الدين ..

- ظروف حياتية قاهرة مرّ بها فنقم على السماء و بالتالي رفض وجود الله ببساطة .. هكذا بلا دليل و لا دراسة على الإطلاق ..

- ظروف نفسية معينة تدفعه للتميز و الاختلاف عن محيطه ، أي يدعو للإلحاد من باب خالف تُعرف ، لا لأسباب منطقية و هذا البند نجده بكثرة عند المراهقين..

أي أن الإلحاد بالمحصلة موضوع نفسي وجداني بحت في أغلب الحالات أو بتعبير آخر هو عتاب من الإنسان لخالقه على ظروف معينة قاسية عاشها لجهله بحكمة الخالق و غاياته النبيلة التي تقف خلف كل شيء ..

ننتقل الآن إلى دلائل وجود الله ، في الحقيقة كل شيء في هذا الكون المعجز ينطق باسم خالقه و يوحّده ، لكن قبل الحديث عن هذه الدلائل الكثيرة لا بد من التطرق إلى مفهوم هام للغاية و هو :

(أثر الله)

و هنا سأستلهم قليلاً من العلم لأتحدث عن موضوع فيزيائي يدعى

أثر الالكترون ، و سأشرح باختصار تجربة علمية بسيطة و هي **تجربة الأشعة المهبطية** لغاية لاحقة بعد قليل :

(هي تجربة كهربائية قديمة أجراها الفيزيائي الإنجليزي **وليام كروكس** باستخدام أنبوب مُفرّغ جزئيًا من الهواء – أنبوب كروكس – وضع فيه قطبين كهربائيين معدنيين على الطرفين كمهبط (كمسدس مطلق للالكترونات) و مصعد (لوحة مطلية بالفوسفور) ، وعندما قام بتوصيل تيار عالي التوتر متردد بين القطبين ، لاحظ تألّق لوحة المصعد الفوسفورية فأدرك أنّ ذلك بسبب انطلاق الأشعة المهبطية (الإلكترونات) من المهبط و اصطدامها بلوحة المصعد، و كان هذا دليلاً علمياً كافياً على وجود الالكترونات بالفعل)

فالعلماء لم يروا الالكترونات حرفياً ، لكنهم آمنوا بيقين أنها موجودة لأنهم رأوا آثارها المتألقة .. وهذا بالضبط ما يفعله الله مع خلقه ، لا يراه البشر فعلياً ، لكن ذلك لا يعني أنه غير موجود ، بل إن البشر يرون آثاره في كل حنايا هذا الكون ، و من هذه الآثار الواضحة (لكلّ من يستعمل عقله) و على سبيل المثال لا الحصر نجد أولاً ، **الإبداع في خلق الكون** : سواءٌ من حيث :

- تنوع مخلوقاته من أحياء (إنسان و حيوان و نبات و كائنات دقيقة) أو جماد (فضاء بأجرامه ، جيولوجيا بعناصرها ....) ..

- تنظيم سير شؤون الخلق بإتقان و وفق قوانين علمية مادية ثابتة تحكم كل شيء بدقة لا توصف ..

- تكامل هذه المخلوقات في وجودها و تفاعلها مع بعضها ، و هذا البند واسع للغاية و لا تكفيه موسوعات لا نهاية لها للإحاطة بعظمة الخلق المبهرة المتجلية في كل تفصيل من تفاصيل هذا الكون ..

ثانياً ، **الأحداث الخارقة للطبيعة (المعجزات)** : و التي يدعوها

البعض جهلاً (صدفة) و التي تعجز جميع قوانين البشر عن تفسيرها ليبقى وجود الله وحيداً في الميدان كمفسر حقيقي لا شريك له لها ، و لا أشك أعزائي بأن كلاً منكم تعرض في حياته لهذا النوع من الأحداث الذي جعله يستشعر أنامل الخالق و هي تحيكها .. و بالطبع لا ننسَ هنا عشرات المعجزات للأنبياء التي كسرت كل قوانين العلم كإثبات لوجود إله مسيطر على هذه القوانين و متحكم بها كما يشاء كمشي نبينا يسوع فوق الماء مثلاً ..

ثالثاً ، **جسد الإنسان المعجز** : بتنوع و تعقيد و تكامل أجهزته و أعضائه و بنيته الجزيئية ليجعل منه الله كياناً قادراً على الوجود و الاستمرار و الاكتشاف و الاختراع و التطور و التفاعل مع غيره و بناء حضارات و فك طلاسم العلوم و الكون ، و بالطبع يتربع على عرش هذا الجسد (العقل البشري) كلغز حقيقي لا نعرف شيئاً عنه حتى اليوم يختزل الكون برمته بين تلافيفه ..

و المفارقة العجيبة في الموضوع أنّ الإنسان يرى صنعه لروبوت إنجازاً إعجازياً لا يمكن أن يتم لوحده دون صانع (الإنسان) في حين يرى الجسد البشري المعجزة الحقيقية أمراً عادياً صنيعة الصدفة و التطور العشوائي و لا يحتاج لصانع (الله) ، فلماذا هذا التناقض في الطبيعة البشرية و الظالم للسماء !!؟

رابعاً ، **حقل الألغام** : فالحياة أشبه بالسير في حقل ألغام بتنوع و غزارة المخاطر المحدقة بالإنسان فيه من قبيل التالي :

- الأمراض و الأوبئة ..
- الموت ..
- الكوارث الطبيعية كالزلازل ، البراكين و الأعاصير
- الحروب بمختلف دوافعها ، سياسية ، دينية ، توسعية ، نهب ثروات ..

- الأزمات البيئية كالتصحّر ، ثقب الأوزون و التلوث..
- الأزمات الاقتصادية ..
- أذى البشر لبعضهم كالسرقة ، الاحتيال ، الاعتداء بأنواعه ، تشويه السمعة ، المكائد ..
- الخسارة بأنواعها ، خسارة وظيفتنا أو دمار منزلنا أو فقد من نحب ..

و رغم كل هذه الألغام نرى البشر يعيشون و يعمّرون و يقضون الأوقات السعيدة ، يحبون و يكوّنون عوائل و أصدقاء و يتفاعلون مع بعضهم ، يتعلمون و يكتشفون و يخترعون ، و تكون لديهم مواهب و وظائف و هوايات متناسبة مع كل منهم ، و لولا وجود خالق متحكم بالكون لما حدث كل ذلك ، و لرأينا الألغام تنفجر بالبشر تباعاً في كل لحظة فيموتون مبكراً و يقضون حياتهم في خوف و قلق و رعب لا يوصف ، لتكون الحياة عبارة عن فوضى و جحيم حقيقيين ..

خامساً ، **معرفة الغيب** : كما أخبر الأنبياء أقوامهم عن أمور مستقبلية حدثت بالفعل ، و لا تفسير لذلك سوى تواصلهم الفعلي مع قوة غيبية خالقة للكون و عارفة بالغيب و أسرار المستقبل ، من قبيل :

- إخبار النبي نوح قومه بقدوم الطوفان ..
- إخبار النبي صالح قومه ثمود بعواقب عقر الناقة ..
- إخبار نبينا يسوع لتلميذه بطرس بأنه سينكره ثلاث مرات قبل صياح الديك في ليلة اعتقاله ..
- إخبار الرسول محمد لبعض صحابته بمصيرهم كقوله لأبي ذر الغفاري شبيه يسوع في قومه بالمكانة و الخشوع : (تعيش وحيداً و تموت وحيداً و تبعث وحيداً) و هذا ما آلت إليه أموره بالفعل ..

● علامات قيام الساعة الصغرى و الكبرى ، و التي بدأت بالتحقق تباعاً بالفعل ..

و غيرها من المعجزات ..

و أخيراً ، لدينا **الغاية من الخلق** : فهذه الغاية التي شرحها الله لنا عبر أنبيائه مقنعة و منطقية و نبيلة لأبعد الحدود ، بأن تكون الحياة الدنيا مرحلة وسيطة قبل الحياة الآخرة في دار البقاء (الجنان) حيث نتعلم في هذه المرحلة :

● تقدير قيمة النعمة لنصونها في الآخرة : عبر فلسفة الإشباع و بداية الضياع التي سنأتي على ذكرها بعد قليل ..

● تقدير قيمة الأخلاق : كالشيء الوحيد الذي لا يمنحك إياه الله من خارجك بل تمنحه لنفسك من داخلك و يساعدك الله على ذلك عبر إعداد تجارب جاهزة و خاصة بكل إنسان حسب موقعه في الحياة ، لنكتشف في النهاية أن الخُلُق هو سرّ الخَلْق .. و بأن الله لن يطالبنا في الآخرة سوى بالتحلي بمكارم الأخلاق ..

لذا عزيزي المصلي ، لا تجزع من شكك و لا تخجل من إلحادك ، فالإلحاد التام يسبق الإيمان التام بدرجة .. و بتفاعل الكون العظيم بخلقه مع عقل الإنسان العظيم بتكوينه ستتسطّر أعظم ملاحم الإيمان في حياة كل إنسان بعثه الله إلى هذه الدنيا ، فالله لم يخلقك جزافاً و لن يتخلّى عنك يقيناً ، بل سيطرق بابك في اللحظة المناسبة ذات يوم من حياتك عندما تغدو جاهزاً لذلك ..

و من الأنسب بعد الآن ألا نقول :

أنا لا أؤمن بالله لأنني لا أراه ..

بل أن نقول :

الله لم يُرَ بل بالعقل عُرف .. و آثار الله في هذا الكون كآثار

الأشعة المهبطية التي أثبتت وجود الالكترونات دون أن نراها ، تجعلنا نؤمن يقيناً بوجود إله لم نره ..

و ألا نقول :

أنا أرفض وجود الله ، لأن بعض المتدينين و رجال الدين نفّروني من السماء ..

بل أن نقول :

الإيمان شيء و الأديان و التدين شيء آخر فلا يجب أن نخلط بينهما ..

و ألا نقول :

أنا ملحد لأنني أؤمن بالعلم و قوانينه ..

بل أن نقول :

العلم لا يعني عدم وجود الله ، بل إنّ الله خلق الكون وفق قوانين علمية مادية ثابتة هو وحده قادر على كسرها بالمعجزات كما فعل في مناسبات كثيرة ..

و في نهاية النقطة الأولى ، كل شيء من حولنا في هذا الكون ينطق بوجود خالق له و عظمة خلقه هذا و إتقان تكوينه لكل شيء ، فإن كنت عزيزي المصلي تشكك بوجود الله فلا بأس عليك ، الله بنفسه أتاح لك هذا و شرّعه .. فالشك هو الرحم الذي يولد منه اليقين .. و تذكر أن نبي الله موسى و هو يخاطب الله حرفياً على قمة الجبل و قد بلغ من العمر الكثير ، طلب من الله آيةً كي يؤمن بوجوده، فسأله الخالق : (ألم تؤمن بعد يا موسى ؟) ، فرد عليه موسى : (بلى ، لكن ليطمئن قلبي) ..

فكيف بإنسان لم يطرق الله أبوابه بعد و لم يرَ من عظمة الخالق و رحمته ما يشبع يقينه و يطفئ حيرته ، لا بأس يا صديقي فذات يوم

سيطرق الله بابك كغيرك و في التوقيت المناسب ، لتصعد بنفسك إلى قمة جبل الإيمان فيخاطبك الله و يقول لك : (آمنت يا بنيّ ؟) فيكون جوابك :

(بلى و اطمأنّ قلبي ..)

صمت القس قليلاً و شرب رشفة من كأس الماء أمامه ثم تابع ..

= ننتقل الآن إلى النقطة الثانية ، و كي أوضحها أكثر سأبدأ من تجربة علمية أخرى لكنها فلسفية هذه المرة أجراها عالم الأخلاق الأمريكي (**جون كالهن**) عام **1986** م ، و تدعى تجربة : (الكون **25**) ..

فقد أنشأ جون ما يعتبر مدينة فاضلة للفئران في مختبره ، فيها رزقٌ دائم و أمان مستمر و مطلق، ثم وضع فيها أربعة فئران، اثنين ذكور و اثنين إناث ، و تركهم بعدها ليعيشوا و يتكاثروا كل **55** يوم و هو يراقبهم و يدرس سلوكهم و يسجله حتى بلغ عددهم حوالي **600** فأراً ، فما الذي حدث خلال تلك التجربة بحسب رأيكم ؟

جوابكم على الأرجح يفترض بأن الفئران عاشوا حياةً سعيدةً في مجتمع مثالي مؤمن فيه كل شيء بال مسؤوليات أو حاجات أو هموم أو مخاوف **!** لكن الصادم في التجربة أن ما حدث في الحقيقة هو العكس تماماً ، فمع قدوم الأجيال الجديدة من الفئران إلى الحياة و التي ترعرعت في عالم متوفر فيه كل شيء بدأت الأمور التالية بالتفشّي :

- العدائية من الفئران تجاه بعضها البعض ..

- الأنانية المفرطة خاصة عند الذكور و تخليها عن

أزواجها و أولادها ..

- قتل الأمهات لأطفالها ..

- سلوكيات اجتماعية و جنسية غير طبيعية من قبل كلي الجنسين ..

نتائج غريبة و عجيبة تخالف المنطق و التوقعات ، أليس كذلك ؟!

استمرت الأمور هكذا بتراجع أعداد الفئران حتى بقي فأر وحيد بعد عدة سنوات ليموت أخيراً فتنتهي معه تلك التجربة الغامضة و المحيرة و تنتهي أيضاً الأحلام بإقامة اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة كتجربة على مجتمع الفئران ..

لكن لماذا حدث ذلك من وجهة نظر العالم جون العلمية ؟

في الواقع العالم جون لم يفسر النتائج بل وصفها فحسب فالعلم بحد ذاته لا يستطيع تفسير تلك التجربة لأنّ نتائجها لا تعتمد على أسس مادية ملموسة بل أنها تسير بعكس اتجاه التوقع العقلاني المنطقي ، لكننا نجد الجواب الشافي عن أسئلتنا عند الدين و الروحانيات هذه المرة .. في الحقيقة يمكن تفسير تلك النتائج ببساطة شديدة عبر جملة واحدة فحسب :

(الإشباع و بداية الضياع)

و ترجمة هذه العبارة أنه بعد التعود على النعم لفترة من الزمن تفقد قيمتها في نظر مالكها تدريجيا ليتلو ذلك طور الانحدار عندما يصل الإنسان إلى مرحلة لا يقدر فيها ما بين يديه فيفقده..

و لا غرابة أنّ ما ينطبق على الحيوان في هذه النقطة ينطبق أيضا على عالم الإنسان .. فجل الأمر ببساطة أنك يجب أن تجرب الحرمان و الحاجة للشيء أولاً كي تقدر قيمته تماماً فلا تخسره لاحقاً و تحافظ عليه ، أما من يولد في عالم متوفر فيه كل شيء بحيث لا يعرف للحاجة طريقاً سواء كان إنساناً أو حيواناً (كفئران تلك التجربة) فلن يعي تماماً قيمة النعم ليفقدها عاجلاً أم آجلاً ..

فالعملية نفسية بحتة بالمحصلة ..

و من وحي تفسيرنا الروحاني الأخلاقي هذا ، أستعين بالقرآن الكريم مجددا لأستشهد بآية أقدرها للغاية تلخص تجربة الكون 25 هذه بمنتهى الروعة و البلاغة و تختصر مفهوم الإشباع بأفضل طريقة ممكنة .. و لا تستغربوا من ذلك فأنا من عشاق القرآن بل إني أحفظه كاملاً ..

تنص الآية على :

(و لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض و لكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير)

و كما ترون كم هي آية مذهلة و معبرة بالفعل ، فالله يعلم ما لا يعلمه البشر و يعرف مصلحتهم أكثر منهم ،إذ يدرك كما يقول بنفسه أن الرزق الشامل للجميع سيؤدي إلى فساد الأخلاق بسبب الوصول إلى الإشباع الخطير الذي ذكرناه آنفاً و بالتالي بداية طور الضياع و فقدان النعم أي تماماً كما جرى مع الفئران في مدينتهم الفاضلة التي أعدها لهم العالم جون و بسط لهم الرزق فيها !! ..

قد يسأل سائل هنا ، لكن لماذا يرزق الله قسماً من البشر الكثير، في حين يقتر رزقه على قسم آخر .. ؟!

سؤال هام ، مشروع و منطقي بلا شكّ .. تجيب عليه آية قرآنية مذهلة أخرى متممة للآية السابقة يعتدل معها ميزان العدل الإلهي و تتحقق المساواة بين الجميع .. و تقول :

(و تلك الأيام نداولها بين الناس)

أي أنّ دوام الحال من المحال فمن هو في النور أو اليسر قد يمسي في الظالم أو العسر و من هو في الظالم أو العسر قد يصبح في

النور أو اليسر و هكذا كتوالي النهار و الليل في حياتنا و لا يبقى على حاله سوى الله تعالى ، فالحياة دورات من شد و إرخاء .. عسر و يسر و بين هذه الثنائيات يلقننا الله أبلغ المواعظ و أعظم الدروس ..

و يمكننا اختزال كل ما سبق بالجملة التالية المبسطة التي تلخص فلسفة الإشباع و بداية الضياع ..

(وفرة النعم تسبب البطر ثم فساد الأخلاق ثم فقدان النعم)

فالبطر خطيئة لا توازيها خطيئة ، و كارثة حقيقية تعصف بحياة الإنسان ، و نظراً لخطورته و تأثيره السلبي على أخلاقه و إنسانيته نجد الله تعالى يقول في القرآن الكريم :

(و كم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً و كنّا نحن الوارثين)

فالبطر ذو نتائج وخيمة تستدعي غضب الله و تأديبه للبشر كي يعودوا إلى طريق الصواب و تقدير النعم بعيداً عن الإسراف أو التبذير ..

و هذا يفسر بدوره لماذا كان الأنبياء و القديسون زاهدين بالحياة و متقشفين، ألنهم يدركون بأن الغنى و الثراء يفتحان أبواب البطر على مصراعيه مع عواقبه الوخيمة ..

و خير مثال على ذلك هو بوذا الذي عاش أميراً مترفاً في شبابه يملك كل شيء، لكنه هجر كل ذلك لاحقاً و اكتفى بحياة الناسك بحثا عن الاستنارة و فهم الحياة بصورة دقيقة و عميقة ، حتى أن كلمة بوذا تعني حرفياً : (**المستنير**)..

وهنا يظهر مفهوم الصيام و أهميته في حياتنا ، طبعاً المقصود هنا هو الصيام عن كل متع و ملذات الحياة المادية منها و المعنوية ، و ليس الطعام و الشراب فحسب، فالصيام بحد ذاته شكل مبسط من أشكال اللقاح ضد الإشباع .. إذ أنك بامتناعك عن متع الحياة لفترة من الزمن كما يحدث في الصيام ، فإنك تقدر قيمتها تماما و كأنك فقدتها بالفعل، فتدرك ما الذي ينجم عن الإسراف أو التبذير بها مما يدفعك إلى احترامها و صونها بأشفار العيون ..

و كما أن للقاح الأولي جرعات معززة و داعمة لاحقاً ، كذلك الصيام يعود سنوياً لتدعم تجاربه بعضها بعضاً مما يرسخ فكرة احترام النعمة في نفوس الناس ..

و يمكن القول و بكل ثقة بأن الصيام هو أهم أركان الأديان على الإطلاق لأنه إن مورس بوعي و إدراك قد يجنب الإنسان طور السقوط في الحياة عقب الإشباع عندما يعي بنفسه تماماً قيمة النعم فيصونها محققاً غاية الإله الأسمى دون أن يحتاج الخالق أن يحرمه منها كي يعي قيمتها بحقّ .. أي أنّ الصيام هو ترياق التسمم بالإشباع ..

و في الحقيقة تجربة الكون **25** ليست الأولى من نوعها في التاريخ بل سبقتها بزمن سحيق تجربة مماثلة نعرفها جميعاً ، بل أنها طبقت على الإنسان و ليس على الحيوان .. إنها **تجربة أدم و حواء بعيد الخلق الأول في الجنة** ، فقد عانيا بدورهما من تجربة الإشباع من نعم الجنة التي خلقا فيها و كانت تحتوي كل شيء حرفياً فلم يعرفا للحاجة طعماً ، فماذا كانت النتيجة ؟

تخليا عن كل تلك النعم و عصيا ربهما عند أول أمر منه لهما بالابتعاد عن شجرة التفاح فبطرا و خسرا تلك النعم ليهبطا إلى الأرض مرتع الحاجة و الحرمان و الدروس الفريدة في تقدير قيمة النعم و التزام النصائح الإلهية النبيلة.. فالقصة ليست قصة تفاحة

فحسب بل قصة رمزية تشير إلى العصيان بعد الإشباع من النعم الإلهية .. فلو قال لهما الله لا تقطفا تلك الوردة على سبيل المثال لقطفاها دون تردد .. و هكذا ..

و بالعودة إلى موضوعنا الأساسي حول الإشباع و بداية الضياع ، فهو برمته أشبه بدخول قطار حياة الإنسان في نفق مظلم ، في البداية و قبل دخول الإنسان النفق يعيش في النور و يتمتع بمحاسنه و رونقه حتى يصل إلى مرحلة الإشباع منه فيصاب بالبطر و يبدأ طور الضياع ليدخل النفق المظلم فيتوه و تعصف به الحيرة و المرارة و الحرمان فيستذكر أيام النور بحنين لا يوصف و يقدره حق قدره مع التوبة و الطلاق من حالة الإسراف و التبذير للنعم و سوء تقديره لها في الماضي ، و عندها فقط يخرج قطار حياته من النفق إلى النور مجدداً و إلى الأبد لتبقى تجربة النفق درساً هاماً كبوصلة يستدل بها في قادم السنوات..

و مما يدعم تحليلنا السابق هو دراسة سلوكية نفسية اجتماعية أجراها العلماء حول معدلات الانتحار حول العالم ، فوجدوا أنّ أعلى معدلات الانتحار هي في المجتمعات المتطورة التي يتوفر فيها كل شيء للمواطن كالدول الاسكندنافية .. لماذا ؟ لأنهم بكل بساطة يملكون كل شيء فقد بلغوا بذلك درجة الإشباع فتلقفتهم غياهب الظلمة و الضياع و قادتهم إلى الإحباط و اليأس بعد فقدان النعم لقيمتها في عيونهم .. !

الله نبيل ، رحيم و كريم .. لديه خزائن السموات و الأرض و لو شاء لمنحنا إياها بغمضة عين دون أن يخسر شيئاً ..

لكن من سيخسر في هذه الحالة هو نحن ، عندما نفقد تقديرنا لهذه النعم فنضيع في متاهة الإشباع و الضياع ، لذا و من أجل مصلحتنا فقط لا غير يجعلنا الخالق نعيش الحرمان و الألم و الحاجة في الحياة الدنيا كي نقدر نعم الجنة اللامحدودة في الحياة الآخرة بعد

الموت فنصونها بأشفار العيون .. و لدينا في قصة أبينا آدم و أمنا حواء عبرة و مثل بليغ .. لذا نجد الله يصف حياتنا في الدنيا في القرآن بالقول :

(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه)

فالله لم يعدنا بغير المشقة في الدنيا من خلال دروس الحرمان المتنوعة ، حرمان المال أو الغذاء أو الصحة أو الأمان أو العائلة ... إلخ ، كي نستحق الراحة و الاستمتاع الأبدي في الآخرة بنعم نعي بعمق و قناعة قيمتها الحقيقية ..

أما **حلم اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة** التي حلم بها **أفلاطون** ذات يوم فلن تقام أبداً في هذه الحياة لأن فيها هلاكاً للجنس البشري على خطى تجربة (الكون **25**) ، بل إنّ الله سيحرمنا جميعاً من متع و حاجات متنوعة حتى قيام الساعة ، لأنّ الدنيا ليست مكاناً للاستمتاع البحت ، بل لتعلم الدروس الهامة التي سنتسلح بها في حياة الآخرة الباقية بعد الموت ..

لذا من الأنسب بعد الآن ألا نقول أيضاً :

الله يملك خزائن السموات و الأرض ، فلماذا يقتر علينا رزقنا و يعذبنا بهذا الشكل ؟

بل أن نقول :

الله نبيل ، رحيم و كريم ، و جلّ ما يفعله في الدنيا هو تربيتنا الصالحة و تعليمنا الدروس كخطوة أولى وحيدة قبل أن يغدق علينا بنعمه اللامحدودة في الآخرة لكن على نحوٍ نحافظ فيه على هذه النعم بعيداً عن الإسراف و التبذير ..

و ألا نقول :

لقد قدمت لأبنائي كل شيء ، فلماذا لا يقابلون ذلك بالسلوك الحميد

و النتائج المرضية ؟

بل أن نقول :

نحن من يخطئ بحق أبنائنا .. فالتربية المثالية و الصالحة لا تكون بتجنيبهم الحرمان ، بل بتعليمهم قيمة النعمة بطرقنا الخاصة كي يحافظوا عليها فيكون الحصاد في النهاية خيّراً و مناسباً ..

الحرمان و الرحمان لا يتشابهان بالحروف فحسب بل بأمور أعمق بكثير .. فالحرمان رحمة إلهية تجعلنا نقدر حقاً قيمة الأمور التي حرمتنا السماء منها كي نحافظ عليها لاحقاً عندما يهبنا إياها الله دون مقابل و للأبد .. كما قال نبي الإسلام محمد :

(**صوموا تصحوا** ..)

أي نصحّ جسدياً ، نفسياً و روحياً على حدّ سواء .. فلا أروع من الصيام كحرمان مؤقت من متع الحياة يجعلنا نقدر قيمتها حقّ قدرها طوال العام التالي حتى نضرب موعداً ً جديداً مع صيام آخر إلى أن تحفر فلسفة تقدير النعم في أرواحنا إلى الأبد مع التأثير التراكمي للصيام على امتداد سنوات عمرنا .. و لذا وجد الصيام في جميع الأديان مع اختلافات بسيطة في الطقوس ..

هل كل شيء واضح حتى الآن ؟

رد الحضور بصوت واحد :

= بلا شك ..

= ننتقل إذن إلى النقطة الأخيرة في عظة اليوم ..و نبدأ فيها من حيث انتهينا ، أي الصيام ، لكن ما أقصده هنا هو صيام من نوع آخر ، الصيام الفكري و هو مفهوم عميق و هام للغاية رغم أنه يقوم على مبدأ بسيط :

(بذل الجهد للحصول على الشيء يجعلك تشعر بقيمته أكثر و بالتالي تصونه و تحافظ عليه أكثر)

و هذا المفهوم ليس ببعيد عن مفهوم الصيام التقليدي ، فحرمان الإنسان من الملذات بطيفها الواسع لفترة من الزمن يجعله يقدر قيمتها أكثر فيحافظ عليها و يستلذ بها أكثر .. لكن الصيام الفكري أشمل و أعمق ، فهو يشمل كل شيء في حياتنا حرفياً مادياً كان أم معنوياً ..

و خير مثال على هذا المفهوم هو **المال** ، فمثلاً بالمقارنة بين الأبناء لآباء أغنياء و فقراء ، نجد أن الابن الذي يأتي إلى الدنيا في عائلة غنية تمنحه كل شيء ، لا يقدر قيمة الأشياء و يعتبرها من بديهيات الحياة ، لذلك يمكنه أن يبذرها أو حتى يبددها بسهولة حتى يصل إلى الإفلاس ، على عكس الابن الذي يأتي إلى الحياة في عائلة فقيرة ، فيشعر تماماً بقيمة النعمة و المال و يشق طريقه في الحياة بجد و اجتهاد كي يخرج من بيئته القاسية هذه لكنه إن أصبح غنياً فسيعرف بالضبط كيف يصون ثروته و يحافظ عليها لاحقاً ..

و على المقلب الآخر للمادة نجد **الدين** ، فالابن الذي يولد في بيئة دينية قويمة كثيراً ما يستهين بهذه النعمة و من الممكن أن ينحرف في فترة من حياته عن جادة الصواب .. على عكس الشخص الذي تربى في بيئة فاسدة و ضالة ، فمن المرجح أن يهتدي لاحقاً في حياته و إلى الأبد لأنه بات يعلم جيداً قيمة الدين و الأخلاق في الحياة و أنها بهما أجمل بكثير ..

و لهذا السبب بالضبط إن راجعنا صفحات التاريخ و بحثنا في حياة العظماء كلهم فسنجد أن القاسم المشترك بينهم هو حياة صعبة في الشق الأول من العمر جعلتهم يفهمون حقيقة الحياة و قيمة النعم و الأشياء لذا تابعوا الشق الثاني من عمرهم بالالتزام و تحقيق الإنجازات بعيداً عن الإسراف و التبذير المادي أو المعنوي أو

الوقتي .. فالسماء تسلك في تعاملها مع الإنسان سلوك القوس و السهم ، فهي بحرمانها للإنسان من بعض الأمور ترجع السهم إلى الوراء ثم بتعويضه بالنعم ينطلق سهم الإنجاز و تقدير النعم بقوة نحو الأمام ..

ننتقل إلى فكرة أخرى هامة للغاية قائمة على مقولة شهيرة :

(لا قيمة لشيء في متناول اليد ..)

و هذا المفهوم يتشابك مع مفهوم الصيام الفكري ، فالشيء الموجود بين أيدينا يمنحنا إحساساً وهمياً بأنه :

- بديهي ، و نستحقه بلا سبب ..

- دائم و أبدي ، و سيرافقنا إلى مماتنا ..

فيتولد لدينا يقين بأن كل ما نملكه في حياتنا واقع لا بديل له في فلسفة الحياة و خلق الإنسان ، لكن في الحقيقة الحياة ليست كذلك ، بل هي دورات من مد و جزر للنعم .. و لا يدري الإنسان متى يصحو من النوم ليجد الأمور قلبت رأساً على عقب و اختفت تلك النعم من بين يديه .. و عندها فقط سيشعر بالقيمة الحقيقية لتلك النعم ، كما يقول الطبيب و الأديب الروسي الكبير **أنطون تشيخوف**

(لا يشعر البشر بقيمة ما يملكونه إن كان وفيراً، فنحن لا نقدّر ما نملك بل وحتى لا نحبه)

أو كما يقول المثل الشعبي الشهير :

(لا ندرك قيمة الشيء حتى نفقده)

و القاعدة العامة للسماء في تعاملها مع البشر هي :

(لا شيء تملكه حق لك ، فإما أن تثبت للسماء أنك تستحقه بتقدير قيمته و صونه و الحفاظ عليه ، أو أنك ستخسره ذات يوم لا محالة كي تقدر قيمته بالطريقة الصعبة و تسعى للحصول عليه

مجدداً بمشقة و عندها ستحافظ عليه بنفسك بدون ضغط خارجي لأنك بذلت الجهد حتى امتلكته)

و هذه القاعدة تنطبق على كل مجالات الحياة (الأمان ، الصحة ، المال ، الدين ، العائلة ، العمل ، المنزل ، الوطن .. إلخ) ..

ننتقل الآن إلى خوارزمية إدراك قيمة النعمة .. إنّ نعم السماء علينا لا تعد و لا تحصى ، فكل شيء حرفياً من حولك عزيزي المصلي تملكه بدون جهد و بالمجان هو نعمة مسؤول عنها أمام السماء ، و هي ببساطة تجربك لترى هل أنت أهل لاستحقاق هذه النعم أم لا ، فإن كان الجواب نعم أغدقت عليك بالمزيد ، و إن كان الجواب لا ، بدأت تشعر بانحسار النعم من حولك بدون مقدمات .. و لكي نؤكد للسماء أننا أهل لاستقبال النعم علينا اتباع الخوارزمية التالية :

- الإيمان التام أن لا شيء مجاني في الحياة : بمعنى أن النعم التي نملكها ليست شيئاً بديهياً من صلب الحياة و نستحقه بمجرد أن أتينا إليها ..

- إدراك أهمية النعم في حياتنا : و هذا أهم بند ، إذ متى فقد الإنسان الشعور بأهمية الشيء فهذا نذير شؤم بأنه سيفقده قريباً ..

- صون النعمة و الحفاظ عليها : و أبسط مثال على ذلك هو هدر الطعام ، فعلى الإنسان أن يأكل بقدر حاجته و في حال تبقى طعام إضافي عليه أن يوزعه على المحتاجين ..

- شكر السماء على النعم : فبالشكر تدوم النعم بل و تتضاعف أيضاً .. ومن أجمل العادات المتبعة حول العالم في هذا السياق هو عيد الشكر في بلادنا أمريكا ، الذي يخصص فيه الناس يوماً لشكر السماء على نعمها ..

- تجربة الحرمان من النعم لفترة من الزمن: كي نعزز البنود

السابقة كلها عملياً ، و هنا يأتي دور الصيام الفكري و التقليدي الذي يمنحنا تجربة مجانية لتحقيق ذلك .. و أحياناً تأتي هذه التجربة من السماء كابتلاءات عصيبة مؤقتة تمنح الإنسان دروساً بليغة في تقدير قيمة النعم ثم تنحسر ، كما قال البارئ في القرآن الكريم :

(و لنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين)

- الإحساس بالآخرين الذين حرمتهم الحياة من نعم نملكها بأنفسنا : بأن نشاطرهم جزءاً من هذه النعم ، و أبسط مثال على ذلك هي الصدقة .. فنحن بهذه الطريقة نعيش تجربة فقدان النعمة بدون أن نفقدها على أرض الواقع بمقاسمة هؤلاء تجربتهم و مشاعرهم ..

- تربية الأطفال على هذه الخوارزمية : فالمرء ينشأ على ما قد علمه أباه ، و الطفل يأتي إلى هذه الحياة بقناعة أن كل شيء من حوله بديهي و دائم ، و بأن حياته ستستمر على هذا المنوال مما يولد في أعماقه شعوراً بالاستهتار بالنعم و التعامي عن قيمتها الحقيقية ، و هنا يأتي دور الآباء في شرح الحقيقة لهم و تعليمهم البنود السابقة ..

و بذلك من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

الحياة هي كما تعرفت عليها طفلاً ، بكل نعمها التي تحيط بي ، و ستستمر هكذا حتى أموت ..

بل أن نقول :

لا شيء بالحياة حقيقي أو مجاني .. الحياة تمنحك نعمة و تراقبك .. فإن أنت قدرتها حق قدرها و صنتها ، أبقت عليها بل و ضاعفتها ، و إن أنت استهترت بها و بذرتها انتزعتها منك و جعلتك تقاتل

بمفردك كي تحصل عليها من جديد ، لأنك في هذه الحالة فقط ستفهم قيمتها بعد أن بذلت الجهد فتحافظ عليها من تلقاء نفسك

في أرشيف التاريخ هنالك مقولة عظيمة للغاية :

(كنت أحزن لأني لم أكن أملك حذاءً ولكني توقفت عن الحزن لما رأيت رجلاً بدون قدمين)

و هذه المقولة تشرح مفهوماً هاماً للغاية نختم به عظتنا اليوم و هو مفهوم **التعاضد النفسي** ، فرؤيتنا لأشخاص من حولنا حرموا من أشياء نملكها يجعلنا نشعر بقيمتها و نصونها و نحمد الله عليها .. لذا تذكر عزيزي المصلي بأن مقابل أي شيء لا تملكه هنالك مئات الأشياء التي تملكها و لا يملكها غيرك .. و بالمحصلة السماء وزعت النعم على البشر بالعدل لا بالتساوي ..

أعلم أنني أطلت عظتي اليوم ، لكن ذلك بناءً على رغباتكم للإجابة عن أسئلتكم التي بلغتني .. شكراً لحسن إصغائكم و أتمنى أن يجد كل فردٍ منكم شيئاً جميلاً في هذه العظة يطمس قليلاً من العتمة في حياته ..

دمتم بخر ..

عيد قيامة مبارك ..

و يسوع قام .. حقاً قام ..

لم يكد القس ينهي عظته حتى ساد صمت مهيب، أشبه بخشوع الكون قبل أن يُخلق الصوت.

ساد الوجوم على الوجوه، وكأن الروح صارت تُنصت لا الأذن، وكأن شيئًا من السماء انسكب على القلوب فأثقلها بنورٍ لا يُحتمل. لم

يُرد أحدٌ أن ينهض من مقعده، لا لأن الصلاة لم تنتهِ، بل لأنهم شعروا أن الزمن نفسه قد جثا راكعًا في هذه الكنيسة. لم تعد المقاعد خشبًا، بل جمرًا يلهب الضمائر، ولم تعد النوافذ زجاجًا، بل مرايا تعكس عورات النفوس.

كانت العظة أشبه بعاصفة ضوء وسط غابة من الشك.

لم تكن مجرد كلمات ناصحة تُكرَّر كل أحد، بل كانت كشفًا؛ جرأة لم يُعهد مثلها على منبر مقدس. كان القس لا يعظ فحسب، بل يُشهر سيف الحقيقة في وجه جهل مقدّس. تحدث عن الله، لكنه تحدث أيضًا عن غيابه في نفوسنا، وعن تلك الثقوب السوداء التي يملؤها الشيطان حين نتركها فارغة. تحدث عن الدين، لكنه لم يتحدث كمن يُكرر ما لقّنه الآباء، بل كمن سافر في صفحات العلوم ، و بحار الديانات، وغاص في التيارات الفلسفية، ثم خرج ليخبرنا أين تلاقت الطرق، وأين انشقت.

كان حديثه عن الإله لا يطمئن، بل يُوقظ، وعن الشك لا يُدين، بل يشرح، وعن الإلحاد لا يُهاجم، بل يفكّكه.

فتح أبواب العقل كما تُفتح نوافذ بيت مهجور على العاصفة، وكل سؤال مدفون في القلوب منذ الطفولة – عن العدل، عن الألم، عن المصير – خرج يصرخ وسط الضوء.

كان الناس يصغون كما لم يُصغوا من قبل، بعضهم بعيون دامعة، وبعضهم بقلوب دامية.

لم تكن خطبة، بل مواجهة. مواجهة مع الذات أولًا، ثم مع ما وراء الذات. كأن القس نصب مرآة كبيرة على المنبر، وقال لهم :

= أنظروا لا إليّ، بل إلى أنفسكم، فإن الله أقرب من قلوبكم من كلمات فمي.

لكن الأعظم لم يكن داخل الكنيسة، بل ما حدث بعد ذلك.

خرج المصلّون بأجسادهم فقط، أما أرواحهم فبقيت معلّقة في القبة. لم تنتهِ العظة بانتهاء الصلاة، بل بدأت للتو.

فما هي إلا ساعات، حتى بدأت كلمات القس تنتشر كانتشار النار في هشيم الأثير. مقطع تلو آخر، ينتقل من هاتف إلى هاتف، من شاشة إلى شاشة، كأن الحقيقة استيقظت فجأة وقالت : كفى صمتًا!

انتشرت العظة في مجتمعٍ غارق حتى أذنيه في استهلاك بلا ضمير، و تكنولوجيا بلا روح وفي أيديولوجيات صنعتها كنيسة الظلمة، كنيسة الشيطان، تلك التي لا ترفع صليبًا، بل تُغلف عبوديتها داخل الذهب والإباحية والمخدرات، وتبيعها على هيئة "حرية" و"شهرة" و"قوة".

لكن ماذا تفعل الظلمات حين يشتعل عود ثقاب واحد؟

يكفي وهج بسيط، حتى ينكشف عريها. هكذا فعلت كلمات القس، أحرقت كل قناع.

لم تكن الكنيسة الصغيرة في المدينة مجرد بناء طوب وزجاج، بل تحوّلت إلى شمس ساطعة تهدّد سلطة الظلمة.

كأنها جرح مضيء في قلب وحش نائم. وكأن السماء قالت للناس : لم أنسكم.

وفي أعين الشياطين التي تلبس ربطة عنق، وفي قلوب عبدة المادة التي لا تنبض إلا بالعملات ، دوى صوت القس هادئاً و قاطعاً كنصل السيف :

(كم أنت هشٌ أيها الشيطان، كم أنت فارغ... إن كانت كلمتي

تُرعبك، فكيف إذا تكلم الله بنفسه ؟)

عندما يقلب الملاك

الرقعة

أحجار الدومينو تتهاوى ..

كان النجاح يتوهّج في أعينهم كنيزكٍ شقّ سماء الليل. **باولو، سامنتا، مايكل، سينتيا، وفريد**... كلهم أكملوا مهام الماجوس بدقة و اتقان و اخلاص لبافوميت ، و بدأت أعداد المنتسبين الى كنيسة الشيطان تتزايد كأرصدة متسلقة على جدران بنك الظلام .. تألّقت وجوههم بنشوة المنتصرين و شعروا بأن الكوكب رقعة شطرنج بين أيديهم يديرون فيه اللعبة بمشيئتهم ، لكنهم لم يدروا أن السماء كانت تراقب، لا بصمتٍ بارد، بل بحزنٍ محتدم كغليان البحر. غضبت حتى الثمالة، حتى سال الضوء من جفونها كالدمع. لم يكن عقابًا عاجلًا، بل تدبيرًا سماويًا بطيئًا... نُسجت انعطافات القدر كخيوط عناكب حولهم، لا تُرى ولكنها تضيّق حتى الخنق.

كانوا يحتفلون تحت الأضواء، بينما فوقهم كانت الموازين تتمايل. لم يعلموا أن زمن الحصاد قد دنا، وأنّ اليد التي زرعت الخراب لا بد أن تذوق مرارة الثمر. وهكذا، بدأت الكفّ الإلهية تحرّك القطع، خطوة خطوة، نحو مشهد لم تكتَب فيه النجاة .

هكذا أخذت أحجار الدومينو في مملكة الظلام تتساقط تباعاً ..

بدأت الصاعقة بصوتِ مكابحٍ حادٍّ على الإسفلت، وصراخ عجلاتٍ مزّقت نسيج الزمن في لحظةٍ. **كاتيا**، زهرة **باولو** الوحيدة، كانت على الطريق، لا تحمل معها إلا عمرًا من الأحلام التي لم تكتمل و رجاء في إنسانية والدها انطفأ قبل أن يشتعل .. اصطدمت الحياة بالموت، وانهارت على طرقات الحياة بلا حراك فيما اجتمع الخلق من حولها يعاينون أضرار الحادث.

وفي غرفة الطوارئ، وقف باولو، لا بصفته رجل سلطة، ولا كعرّاب السوق السوداء للأعضاء، بل كأبٍ أضناه الرجاء. رأى كاتيا، جسدها المرتجف يهمس بنورٍ لا يُرى. لم تتوسل إليه، لم تبكِ، لم تُشهِر اللوم. قالت فقط بنبرة من يودّع الدنيا :

(أرى الضوء ساطعًا... أنا ذاهبة إلى الله، اتبعني أبي...)

ثم خيّم السكون، سكونٌ أعمق من الموت. أصيبت بموت دماغي . تلك اللحظة كانت مرآةً صادمة... باولو، الذي باع آلاف الأعضاء، وقف عاجزًا أمام العضو الوحيد الذي لا يُشترى و لا يباع ، الدماغ... حيث تكمن الروح، حيث لا يبلغ التاجر ولا السمسار.

تحطّم من الداخل. انهار. كأن قلبه سقط من بين أضلعه ولم يعد. طافت به الذكرى كقاربٍ فقد المجذاف. أدرك أن الجاه لا يغيّر

القدر، وأن السيطرة كذبة رقيقة تمزقها قبضة السماء في ومضة. ومن تحت الرماد، استيقظ فيه شعور غريب، كان نائمًا منذ ولادته : **الخضوع**. رفع عينيه إلى السماء، وفيها اعترف لأول مرة : **الله حق و هو السلطة الوحيدة المطلقة ..**

أما **سامنتا،** فكانت تعيش في قصرٍ من المرايا... كل مرآة تعكس شهرة، وكل انعكاس يخفي جرحًا. كانت تحلم بالأضواء منذ صباها، لكن الأضواء حين التهبت، لم تمنحها الدفء، بل أحرقتها. استُغلّت، ابتُزّت، صارت دمية بألف خيط، تحركها الأيادي في الكواليس. ألبسوها ما لا يليق، أجبروها على ابتسامات مستعارة، وسرقوا منها حتى الحق في الحزن. أصبحت روبوتًا بشريًا، تمثل في الحياة أكثر مما تمثل على الشاشة.

أدمنت الصمت، ثم بدأت تنهار. كانت تضحك أمام الكاميرا، وتبكي في الكواليس. بدأت تفشل، ليس لأن الموهبة رحلت، بل لأن روحها كانت تُسحب من أدوارها. فقدت اتزانها، وتلاشت طاقتها، وسرعان ما فترت شهرتها. لم تعد رغبة المنتجين، ولا معشوقة الجماهير، بل صفحة مطوية في دفتر العار.

في ذروة اللمعان، تمنت لو أنها مجهولة. لو أنها فتاة الحي البسيطة، بضحكتها العفوية وملابسها الباهتة. لكنها علمت بعد فوات الأوان، أن الشهرة التي تسلب منك ذاتك... ليست نعمة، بل لعنة ناعمة..

دخلت في اكتئاب عميق و اعتكفت في منزلها و بدأ الجمع ينفض من حولها ، كأنها جيفة بلا حياة و لم تعد تفيد كولائم على الموائد

وفي ناطحات المال، كان **مايكل** يحتسي النبيذ على شرفاته، يرقب العالم من علوّ، كمن يظن نفسه فوق القوانين و عراب السوق الذي

أتقن قواعد لعبته . لكن الاقتصاد لا يحني رأسه للمتعجرفين. ظهر منافس جديد عملاق لشركته بين ليلةٍ و ضحاها ... وبالتزامن معه جاءت أزمة مالية عالمية لم ترحم أحدًا.

شركاته العملاقة بدأت تتهاوى كأحجار دومينو. سقطت الأولى، تبعهتا الثانية فالثالثة .. حتى أعلن إفلاسه رسميًا. لم تكن الخسارة مالية فقط، بل وجودية. فالرجل الذي ظنّ نفسه مركز الكون، وجد نفسه خارج معادلة الحياة.

النرجسية كانت زنزانته، تدفعه للانتحار... لكنه لم يملك الشجاعة. بقي في المنتصف، لا حيًّا ولا ميتًا، يدور في صحراءٍ من الفراغ. لم يكن يتألم لفقد المال، بل لفقد صورته أمام نفسه. إذ لا شيء أقسى من أن يُهزم المرء في عقر كبريائه.

في زاويةٍ نائية من الحياة، جلست **سينتيا** تقرأ نتائج فحصها الطبي الروتيني السنوي. الورقة بدت عادية، لكن السطر الأخير فيها كان قنبلة... إيجابية: فيروس **HIV**.. الايدز ..

تجمد الدم في عروقها. لم تكن تدري من أي لحظة تسلل المرض، علاقة قديمة، ليلة عابرة، طيشٌ رومانسي مرّ كنسمة وترك فيها إعصارًا.

تحطّمت. انعزلت. صارت جدران بيتها تابوتًا بلا نعش. تفكرت في حياتها، في خياراتها، في صرخات أمها التي كانت تقول لها :

= عودي إلينا.

لم تسمع. لم تُصغِ. كانت تظن أن القدر يتمدد على مقاس رغباتنا. لكن القدر الرحيم حين يُرفض، يُصبح قدَرًا مزلزلًا.

تمنت لو عادت بها الأيام. لكنها عرفت ، التأني في المعصية لا

يمنع السقوط، بل يجمله فقط.

أما **فريد**، فكان على لوح أمواج ميامي، يظن نفسه آلهة البحر، يرقص على ظهور المدّ والجزر. كان جسده ممشوقًا، مغرورًا بمملكته القائمة على الممنوعات... كسموم تُباع بابتسامة.

لكن موجة خائنة واحدة، صخرة خفية، وارتطام عنيف... جعلته جسدًا بلا أطراف. شلل سفلي، نهائي. كأن الحياة قررت أن تُنزل سيفها فجأة، وتُريه هشاشته المطلقة. لم يعد يستطيع التحرك، ولا إدارة مملكته، ولا حتى تنظيف دموعه.

تهدمت مملكته كما تنهار أبراج الرمال تحت المدّ. أدرك أنه لم يكن سلطانًا، بل مسكينًا تحركه الأوهام. العالم لا يُملَك بالقوة، بل يُستعان عليه بالرحمة... والرحمة لم تكن أبدًا في صفقاته السامة.. و في رحم الشك بالاله الذي لازمه طيلة حياته أنتشت بذرة إيمان صغيرة .. لكن أكبر الأشجار الباسقة بدأت رحلتها الطويلة من تلك البذرة ..

هكذا جاءت النهاية كصفعةٍ من السماء، أنيقةٌ في قسوتها. كل ما حدث لم يكن عبثًا، بل ضربة واحدة من يد القدر العليا، رسمت على رقعة الحياة لوحة لا يخطئها المراقب.

كانوا خمسة، تحركوا كجنودٍ فوق تلك الرقعة ، يظنون أنهم سادة القرار. لكنهم نسوا أن فوقهم لاعبًا آخر، لم يكن في عجلةٍ من أمره، بل يراقب... بصمت. وعندما اكتملت الخطوط، عندما وصلت أناملهم المتغطرسة إلى سقف السماء، هبط الملاك بحركةٍ واحدة خاطفة... وقال :

كش مات.

لم تكن خسارتهم في المال، أو الجسد، أو الشهرة... بل في الوهم. الله يمهل ولا يهمل. وما من شجرةٍ نبتت من كبرياءٍ و بلغت ربها أو نجت من برق الحق. فتهاووا، قطعة قطعة، إلى قاع جحيمهم، ليحترقوا فيه بنيران قراراتهم كما أدمنوا إحراق الآخرين فيه .. فكل ساقٍ سيسقى مما سقى .

في النهاية، لم يبقَ من مجدهم سوى الرماد.

و الملاك ؟... لم يصرخ، لم يلعن، لم يحتفل. فقط همس :

(الآن انتهت اللعبة و خسر الشيطان كعادته بعد أن ظن نصره لا مانع له .. فهل هنالك بداية للعبة جديدة تنعكس فيها الأدوار)

تغيير البوصلة

عودة الابن الضالّ ..

لم تكن الصفعة الإلهية التي ضربت حياتهم مجرد سلسلة من المصائب؛ كانت نداءً. ضوءًا خاطفًا في العتمة التي طال بها الأنس، وموجةً عارمة جرفت أقنعة القوة والسطوة، وكشفت هشاشتهم التي لطالما تجاهلوها خلف مرايا العُجب. خمسةٌ... كانوا ملوكًا على عروش من دخان. تفرّقوا في طرق الخطايا، تلوّنوا بلون النار، رقصوا في مَواسم المجد المسموم، ثم سقطوا، واحدًا تلو الآخر، كأوراق الخريف حين تسحب السماء عنها يدَ الحياة.

في عزّ انكسارهم، كان صوت القسّ باتريك يرتفع، لا على أكتاف البشر، بل على جناح النور. لم يكن صوته أعلى من ضجيج العالم، لكنه كان أنقى، وكان يكفي. عظاته التي تُروى في مقاهي الغرباء وأفواه التائبين، صارت نوافذ مفتوحة نحو الرجاء. تتناقلها الهواتف و تحتضنها القلوب و الضمائر ..

عنوان عظة الأحد الجديدة : **عودة الابن الضال** ، لامس قلوب خمستهم دون استئذان. لم يقرؤوه... بل كأنهم سمعوه من الداخل، من ذلك الفراغ الذي نبت فيهم بعد السقوط.

لم يتشاور أحد، لم يتصل أحد بالآخر. كلٌ سار وحده، نحو الكنيسة، وكأن السماء كتبت لهم موعدًا خفيًا. كانوا منقسمين بالألم، لكن البوصلة واحدة بالرجوع.

كانت الشمس في ذلك الصباح مختلفة. ناعمة ككف أمٍ تلمس جبين طفلٍ عائد من الحرب. والهواء، رغم زمهرير الشتاء، كان دافئًا بما يكفي ليقول إن الله لا يغلق الباب إذا ما طُرِق. دخلوا الكنيسة واحدًا تلو الآخر، كلٌّ بخطوٍ مرتجف، كمن يدخل أول مرة بيته الحقيقي.

باولو جلس في المقعد الثالث، مطأطئ الرأس، يحمل بيده صورة كاتيا، لا ليبكي، بل ليطلب الغفران. **سامنتا** جلست بعيدًا، تنظر إلى الضوء المنسكب من النوافذ الزجاجية كأنه شلال يُطهّر الذاكرة. **مايكل**، الذي لم يرفع رأسه منذ خسر كبرياءه، جلس ينظر إلى الصليب كما لو أنه لأول مرة يرى شكله، لا كرمزٍ ثقيل، بل كيدٍ مفتوحة. **سينتيا** تقدّمت بخشوع، كانت الدموع تتسرب من عينيها دون مقاومة، كأنها تستحم بالنور لتنظف أدران جسدها. أما **فريد**، فقد دخل متأخرًا، يحرك كرسيه المتحرك بيدين ناحلتين، لكنه كان دخولاً مهيبًا... كمن يزحف نحو خلاصه الأخير.

وعندما التقت عيونهم، تاهت الدهشة في الوجوه. لم يكن لقاءً مخططًا. لم يكن صدفة. كانت سماءٌ رتبت كل شيء في صمت. وكأن كل واحدٍ منهم تلقّى من الله دعوة، كتبت بالدمع وخُتِمت بالرحمة، ودُسَّت في ظرف غير مرئي في جيبه، فانقاد إليها دون أن يعلم... ليجتمعوا لا حول نجمة خماسية سوداء هذه المرة بل حول محراب ينادي عليهم بشوق و غفران ..

كانوا خمسة، تفرّقوا في الخطيئة، ثم اجتمعوا في التوبة.

دقّت الأجراس، لكنها لم تكن دعوة إلى الصلاة، بل نداء إلى العودة. جلسوا معًا، لا كما كانوا، بل كما صاروا: أضعف، أصدق، وأكثر تعطشًا للخلاص. وبينما القسّ باتريك يصعد درجات المذبح، شعروا أن كلمات العظة لم تكن تُقال لهم، بل عنهم. كل جملة كانت مرآة، كل فقرة كانت تذكيرًا، وكل صمتٍ بين العبارات، كان يحتوي أنينهم المكبوت.

عودة الابن الضال... ليست مجرد عظة، بل مرآة للراحلين عن الحق، العائدين إليه حفاة، متعبين، محطّمين. والقسّ لم يكن يعظ، بل كان يُمسك بأيديهم من بعيد، ويقودهم بلطف نحو الجنة التي

تركوها يومًا مغرورين.

لم يطلب أحد منهم أن يعلن توبته. لم يكن في المذبح طقس، ولا في المقاعد اعتراف. كان الله وحده كافيًا، بفتحه أبواب السماح. ما عادوا أبناء الخطيئة... بل ضيوف النور.

وقف القس باتريك بهدوئه و خشوعه المعهودين ، ابتسم في الوجوه المصوبة عليه و القلوب المتعلقة بكلماته القادمة ، فتح ذراعيه حتى اتساعهما و قال :

= أهلاً بكم إلى حضن الله مجدداً أبنائي .. الله لم يخلقكم كي يتخلى عنكم .. بل كي تعودوا إليه تائبين طاهرين .. كيف ذلك ؟ هذا ما سنوضحه أكثر في عظة اليوم (عودة الابن الضال) .. و ذلك باتباع خوارزمية الله التي ترتكز على مبدئين هامين للغاية و يجمعهما معاً لونان فقط و هما : الأبيض و الأسود لا أكثر ..

- الدنيا تحمل في رحمها توأم (جنة و جحيم)
- علاقة الإنسان بالسماء تشبه تماماً علاقته بأبويه ..

فهيا بنا نخوض غمار عظة اليوم الهامة هذه بتحليل كل محور على حدة باستخدام اللونين المقدّسين (الأبيض و الأسود) ..

نبدأ بالنقطة الأولى ، الدنيا تحمل في رحمها توأم (جنة و جحيم) ، فإذا تأملنا أيامنا التي نعيشها على الأرض فسنجدها تتوالى بثنائية (النهار و الليل) أو النور و الظلام أو الأبيض و الأسود و هذا في الحقيقة ينسحب على كل شيء آخر فيها ، فالدنيا برمتها تتشعّب إلى ثنائية (الموجب و السالب) .. ما بين حقول الورد و لهيب الصحراء .. أو الخير و الشر .. أو الراحة و التعب .. أو الأمان و الخوف .. أو السعادة و الاكتئاب .. ثنائيات لا حصر لها من التناقضات يبرز فيها كل ضّد سلبي إيجابية الضد المقابل له ..

تماماً كشعار الديانة التاوية الشهير (دائرة بنصفين أبيض و أسود) ..

و في حين أن اللون الأبليض يحمل في طياته ألوان الحياة البهيجة كل لون بطعم مختلف (نجاح ، حب ، تحقيق حلم ، متعة ...) ، فإن اللون الأسود بطعم واحد و هو الألم .. فقد تعددت الأسباب : (مرض ، موت ، خيانة ، خيبة امل ، تشرد، حاجة ..) و الألم واحد ..

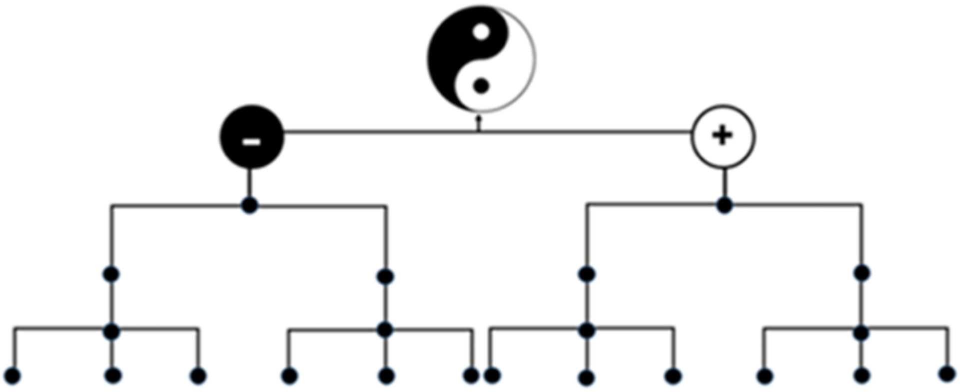

و هكذا فالدنيا كلها من حولنا عبارة عن جنة و جحيم و ينطوي تحت كل منهما قائمة طويلة من الإيجابيات الباعثة على السعادة أو السلبيات المولّدة للألم .. أي أنها مرسومة بلونين فقط (أبيض بألوانه الزاهية و أسود) ..

و الفكرة الخطيرة و الهامة للغاية هنا أن الإنسان يرى من هذه الدنيا النصف الذي يعيشه في داخله ، فإن كنت مؤمناً قنوعاً مثلاً رأيت كل شيء باعثاً على الرضا و الإيمان ، أما إن كنت متذمراً و كافراً فإن كل شيء من حولك يعزز تذمرك و يبرّر كفرك .. و هذا ما يدعوه البعض (قانون الجذب) الذي لخصه الفيلسوف الصوفي الكبير **شمس الدين التبريزي** بروعة بقوله :

((إن الطريقة التي نرى فيها الله ما هي إلا انعكاس للطريقة التي نرى فيها أنفسنا، فإذا لم يكن الله يجلب إلى عقولنا سوى الخوف و الملامة، فهذا يعني أن قدراً كبيراً من الخوف و الملامة يتدفق

في نفوسنا. أما إذا رأينا الله مفعماً بالمحبة والرحمة فإننا نكون كذلك))

أو كما أبدع شاعر عربي حكيم يدعى **إيليا أبو ماضي** بشطر البيت التالي :

((كن جميلاً ترى الوجود جميلاً))

فنحن في حياتنا نسقط صورتنا الداخلية على العالم من حولنا ، و إن كانت قلوبنا بيضاء رضيّة ، رأينا النصف الأبيض من الحياة (الجنة) يطغى على دائرة التاو كلها فيطمس السواد فيها ، و إن كانت قلوبنا سوداء حقودة تفشى السواد في الدائرة كسرطان فوجدنا الدنيا من حولنا جحيماً مستعراً .. و هذا ما يدعى في الطب النفسي (الإسقاط) ، كحال الزوجة التي تخون زوجها فتتهمه هو بالخيانة ، أي تسقط صفاتها عليه .. و الإنسان المنغمس في الخطيئة في الحياة يسقط خطاياه على السماء فيعتبر الله قاصراً أو ظالماً ، و على الأرض فيصفها بكوكب يغرق في الخطايا و خال من أي روح طاهرة ..

باختصار الدنيا هي أنت .. فكما تكون ستكون حقيقة أمامك..

واضح يا أبنائي ؟

= المصلون بصوت واحد : واضح تماماً ..

= ننتقل إذن إلى النقطة الثانية في عظة اليوم ، و هي أنّ علاقة الإنسان بالسماء تشبه تمامًا علاقته بأبويه ..

فالإنسان في حياته على كوكب الأرض يسلك طريقاً مشابهاً لحرف **N** في اللغة الإنجليزية (صعود ، هبوط ثم صعود مجدداً) و هذا الطريق يختصر بدقة علاقته مع أبويه من جهة و علاقته مع السماء من جهة أخرى .. كيف ذلك ؟

تعالوا أعزائي نحلل كل مرحلة من هذه المراحل الثلاثة على حدة كي نوضح الفكرة أكثر ..

أولاً ، مرحلة الصعود ، فالإنسان يأتي إلى هذه الحياة طفلاً ضعيفاً خائفاً من كل شيء حوله كونه يجهله بالكامل ، لذا يستسلم كلياً ليدي الله و الأبوين كملاذ فطري له من العالم المخيف في عينيه ، و لأنهم يحبونه و يخافون عليه فسيقومون بحمايته من النصف الأسود (الجحيم) للحياة ، و يدفعونه إلى النصف الأبيض(الجنة) منها بحيث يعلمونه فنون و تقنيات التعامل معه لاقتناص كل بواعث السعادة فيه ، و مما يدعم الطفل بقوة على إتقان ذلك هي قوة الجديد و بهجته ، فما أن يبدأ الطفل بالوعي و يتعلم أساسيات الحياة الأولى ، سيشرع بخوض مغامرات حقيقية ممتعة من :

■ **اكتشاف الذات** : كيف يعمل جسده ؟ ما الذي يسعده و ما الذي يحزنه ، ماذا يحب و ماذا يكره ؟ .. كيف يستعمل الأشياء من حوله و يسيطر عليها فيوجهها لخدمته و إنجاز غاياته و تحقيق سعادته .. و غيرها من أسرار الذات البشرية

■ **اكتشاف المحيط** : من أشخاص كالعائلة و الأصدقاء و الغرباء و طريقة التفاعل معهم ، أو أمكنة كالمنزل و الحي، و كل شيء آخر من حوله ..

■ **اكتشاف الأرض** : بتنوعها الرهيب المذهل ، طبيعة ،مناخ ، تاريخ ، جغرافيا ، اكتشافات و اختراعات .. و القائمة تطول ..

■ **اكتشاف الكون** : فيذهل باتساعه الرهيب ، و ضخامة أجرامه ، بأعداد مجراته المخيف ، و بتنوع مجموعتنا الشمسية المدهشة ..

■ **اكتشاف السماء** : الاستدلال على وجود الخالق ، صفاته العظيمة ، غايته من خلقه و خلق الدنيا كلها ، ما ينتظره بعد الموت .. و ما يريد الله منه في الدنيا و الآخرة ..

هذا العالم المثير من الاكتشاف لكل شيء جديد يجعل الدنيا في عين الطفل أشبه بدخول عالم خيالي من الأحلام متنوع الجوانب ، و مما لا شك فيه بأن اكتشاف الجديد هو أكبر متعة في الحياة و تجلب سعادة هائلة للدماغ البشري ، يضاف إلى ذلك بأن دماغ الطفل نظيف ، و يعمل كرادار لكّل ما هو جميل و إيجابي كما يحذف مباشرة كل ما هو قبيح و سلبي.. و هكذا يشب الطفل في عالم من البهجة الصرفة رغم هول المآسي من حوله التي يتجاهلها عقله .. وتكون حياته بفضل التزامه بتوجيهات الله و الأبوين عبارة عن دنيا من الأنوار الملونة الزاهية .. و هذا ما نجده حقيقة أمام أعيننا بضحكات الأطفال التي لا تتوقف من حولنا ..

صمت القس قليلاً و شرب رشفة من كأس الماء أمامه ثم أردف :

= ننتقل الآن إلى المرحلة الثانية ، مرحلة النزول ، فمع اشتداد عود الشاب قليلاً تبدأ الأمور بالتغير بشكل سلبي ، فيبتعد رويداً رويداً عن الله و عن أبويه و ذلك بسبب مجموعة عوامل تدفعه بإرادته إلى مغادرة عالم النور و دخول النفق المظلم ، و يمكن إيجازها بعاملين رئيسيين :

◈ **التمرد** : بسبب اعتداد الشاب بذاته أكثر و إعجابه بنفسه و ثقته بأنه بات قادراً على فعل أي شيء ، فتبدأ رغبته بالاستقلال بحياته و قراراته ، و عيش الدنيا كما يهوى و يتمنى .. متعامياً عن حقيقة خطيرة بأنه لا يزال غراً بالحياة و بأن هذه الثقة زائفة.. و المشكلة الكبرى هنا تكمن في نقطتين حرجتين :

● الإنسان يجهل أن حياته السابقة هي السعادة القصوى التي صممها له أبواه و خالقه بانتقاء و عناية ، فهو بلغ قمة السعادة بالفعل ، و لا شيء آخر ينتظره بعدها سوى النزول من هذه القمة .

● أن نصف المعرفة أسوأ و أخطر من الجهل .. و الشاب لا يزال

في منتصف الطريق لمعرفة نفسه و الحياة بدقة .. لذا فقرارته كلها مشوهة و مغلوطة و ستقوده إلى الهاوية بعد بلوغه قمة السعادة ..

◈ **التعود** ، سرطان الحياة و قاتل متعتها ، فبعد سنوات من الاكتشاف المثير للحياة يبدأ الشاب بالاعتياد عليها و تفقد بواعث السعادة المتنوعة الكثيرة من حوله معناها تدريجياً ، فيتجه لتجربة شيء جديد .. و بحكم أنه ولد كطفل في عالم النور و متّعه الله و أبواه فيه .. فلن يتبقى أمامه سوى عالم الظلام ليجربه .. مخدرات .. سهر .. شرب .. طيش .. لا مبالاة .. إلحاد .. إلخ ، و لأن الإنسان يرى العالم الخارجي على صورته الداخلية ، فسيرى الدنيا عندها جحيماً مستعراً يحترق بلهيبه فيلوم السماء على ذلك ..

و هكذا بسبب هذا الخليط من التمرد و التعود تتدهور حياة الشاب ليصبح أشبه بملياردير امتلك ذات يوم ثروة هائلة من السعادة ثم بددها بجهل و رعونة هنا و هناك على توافه الحياة التي لا تفيد ، فيبدأ بالافلاس تدريجياً حتى ينتهي به المطاف في الحضيض مغموراً بالاكتئاب و الضياع و الندم على تفريطه بسعادته و حياته السابقة ، و للأسف الإنسان لا يدرك قيمة الأشياء حتى يفقدها ..

و هنا يبدأ الحنين لعالم النور بغزو قلبه و اليقين بأن دروب الظالم مهلكة و لا تخلق أي ذرة من السعادة ينحفر في عقله و وجدانه ، ليدرك أخيراً بأن الله حقيقة لا ريب فيها و بأنه و أبويه حرصوا بعناية فائقة على تجنيبه النصف المظلم الأسود من الحياة و منحوه عالماً واسعاً من النور عاش فيه أجمل الذكريات .. و بأنهم يدركون مصلحته أكثر منه ، فشتّان بين حياته عندما أصغى لتوجيهاتهم و حياته عندما تمرد عليها و ظن نفسه مكتفياً بذاته و قادراً على معاركة الحياة لوحده ..

و هذا في الحقيقة تطور طبيعي لحياة كل إنسان ، حيث تشبه دورة

القمر في سماء الليل حياة البشر، يبدأ محاقاً ثم يكبر تدريجياً ليصبح بدراً في كبد السماء و هنا يغتر الإنسان بنفسه و يزهد بذروة السعادة التي بلغها فيفرط بها بسهولة ، ليبدأ بالاضمحلال تدريجياً حتى يختفي في النهاية و يعود محاقاً من جديد فتتلاشى سعادته ..

هنا اغرورقت عيون الخمسة (باولو ، سامنتا ، مايكل ، سينتيا و فريد بالدموع) ، كأن كلمات القس تصف حياتهم بالضبط بأدق تفاصيلها عندما بلغوا القاع .. في حين تابع القس كلامه :

= و النقطة الأهم في عظتنا كلها أن هذا الضياع في غياهب ظلمات النفق الذي أدخل الشاب نفسه فيه ضروري لتطور روحه و لا غنى عنه أو بديل له على الإطلاق ، كما قال الفيلسوف الصوفي الكبير **جلال الدين الرومي** :

((لا تجزع من جرحك، و إلا فكيف للنور أن يتسلل إلى باطنك))

فلولا وصولك إلى حضيض الحياة يائساً ، منكسراً ، كئيباً ، نادماً لما دخل النور الإلهي إلى قلبك بالفعل .. فليس المهم أن تعيش في النور ، بل المهم أن تدرك أهمية النور و قداسته كي لا تتخلى عنه لاحقاً في عالم البقاء بعد الموت ، هنالك حيث لا عودة من الخطأ و لا مجال للخطأ بالأساس ، و لا شيء يظهر قيمة النور و مدى أهميته كتجربة الظلام و وحشته .. لذا فعبروك النفق ضرورة ملحة لإدراك قيمة النور الحقيقية الذي عشته قبل النفق و خرجت إليه بعده ..

و هذه كأس على جميع الناس ذاقها أبواك في شبابهما و سيذوقها أبناؤك من بعدك أيضاً و جميع البشر على حد سواء ، فلكل مخلوق نفقه الخاص في حياته .. لكن الجميل في الحكاية أنك عندما تودع السماء و تدخل بإرادتك النفق المظلم فإن السماء لا تقول لك الوداع

.. بل إلى اللقاء، فهي على دراية تامة بأنك ستعود إليها ذات يوم .. فبعد عيشك لسنوات في نور الشمس المشرقة بالتزامك بالتوجيهات ثم تلبد السماء بغيوم تحجب ذلك النور بتمردك تبدأ دموع الندم و الحنين تنهمر من عينيك كالمطر لتغسل روحك .. و هنا تأتي المرحلة الأخيرة في حياتك و هي تلاشي الغيوم و شروق شمس الله ثانيةً لتضيء كل شيء كالنور في نهاية النفق فتبدأ بذلك المرحلة الأخيرة و هي الصعود إلى نور السماء مجدداً ..

عندما يغرق الإنسان في مستنقع الظلمات و الحياة الفاسدة سيهوي إلى القاع تدريجياً حتى يبلغ الحضيض و هنا لن يتبقى أمامه مساحة للنزول أكثر ، فلا يسعه سوى الاستناد إلى القاع و الانطلاق مجدداً نحو السطح بقوة و رغبة بالنجاة و الحياة .. ليخرج أخيراً من هذا المستنقع و يتنفس هواء الحياة القويمة النقي و يتمتع بنورها البهيّ الذي يضيء له الطريق من جديد .. فتستقبله السماء ضاحكة لتغني له : **أهلاً بمن أحجم عنا و تركنا حاقداً .. و اليوم يدنو برضا و محبة و حبور ..**

فالإنسان الذي غادر النصف الأبيض من الحياة و دخل النفق المظلم بإرادته ذات يوم لائماً الحياة على سلبيات و سواد لا وجود لها إلا في داخله جعلته يرى النصف الأسود من الحياة فحسب كجحيم مستعر ، أدرك هذه الحقيقة بنفسه و غيّر من نفسه إلى البياض مجدداً فعادت الدنيا بيضاء ناصعة مغمورة بالنور في غمضة عين لينقلب العتاب بشاشة و حبور .. و كما قال البارئ في القرآن الكريم :

((إن الله لا يغير ما بقوم ٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم))

فعندما غيّر الشاب داخله من بياض إلى سواد تغير لون من حوله بنفس الترتيب ، و عندما غيّره مجدداً من سواد إلى بياض عادت

الحياة إلى ما كانت عليه فعاد قلبه طفلاً كأول عهده و الدنيا جنة في عينيه .. كما قال العالم **بليز باسكال** :

((الحكمة تعود بنا إلى الطفولة))

و لن ينال أحد الحكمة حتى يعبر نفقه الخاص في حياته و تتشرّب روحه بخلاصة تجربته هذه من حكمة تقول :

(الجنة و الجحيم يقبعان في أعماق روحك و أنت تختار على أي صورة تريد أن تكون و يكون العالم من حولك ..)

إذاً فحياة الإنسان عبر المراحل الثالثة (أبيض ، أسود ، أبيض) هي رحلة في أعماقه لا غير.. فالدنيا لم تتغير و السماء لم تتبدل ، بل الإنسان أسقط داخله عليها فحسب .. لتنتهي رحلته بالخلاصة التالية :

((التمسك بالنور بقوة و يقين و رضا .. لأن الإنسان بات يعلم بتجربته الشخصية أن البديل الوحيد هو الظّلام لا غير، حيث الألم و الضياع و لا شيء آخر ..))

و هذه هي خوارزمية الله السريّة في هداية البشر ..

و في الحقيقة عالم الخطيئة المظلم يشابه إلى حد بعيد بنية الثقب الأسود المظلم من **3** زوايا ..

- الثقب يجذب الأشياء المارة بجواره بما فيها الضوء بقوة

كبيرة : و هذا حال دوامة الخطيئة ما إن يضع الإنسان قدمه فيها فستسحبه إلى ظلام قاعها الدامس ليغرق ضمير الإنسان كلياً ..

- **للثقب منطقة تدعى (أفق الحدث) و هي المنطقة التي يبدأ منها تأثير الجذب إلى غير رجعة** بمعنى آخر هي مسافة الأمان التي تفصل الأجرام السماوية عن الثقب الأسود .. و هو بالضبط مسافة الأمان التي يجب على الأجرام البشرية ألا يتجاوزوها في الحياة كي لا يُجذبوا إلى ظلام الخطايا ، فالموضوع برمته يبدأ بخطوة أولى فإن استساغها المرء غرق في مستنقع الخطايا النتن أكثر على نحوٍ غير عكوس ..

- **الثقب الأبيض** ، و هو البوابة الأخرى للثقب الأسود الذي تخرج منه الأشياء عبر ما يدعى علمياً **جسور أينشتاين روزن** ، و هو يعادل في الحياة مفهوم التوبة عن الخطيئة أي مغادرة ظلام الثقب الذي جُذب إليه .. و كما أن الأجرام تدخل الثقب الأسود من جهة في الكون لتخرج من الثقب الأبيض في جهة معاكسة ، كذلك الإنسان الذي يدخل ظلام الخطيئة يخرج من الثقب الأبيض إنساناً آخر مختلفاً جذرياً و قد تعلم الدرس الأهم في الحياة (**طريق الظلام مرير و بلا نتيجة**) ، و لا غنى عن الإيمان بالله لتحقيق ذلك فوحده من **يخرج البشر من الظلمات إلى النور** ..

إذن يا أبنائي ، من الأنسب بعد اليوم ألا نقول :

لقد اشتد عودي و كبرت .. و لم أعد بحاجة لتوجيه من أحد .. بل سأعيش الحياة كما أريد ..

بل أن نقول :

نصف المعرفة أخطر من الجهل ، فلا تغتر أيها الإنسان بنفسك في بداية شبابك و تظن نفسك قد بلغت منتهى الحقيقة و المعرفة .. بل التزم بتوجيهات خالقك و أبويك حتى آخر يوم من حياتك .. فإن أفلت أيديهم ضعت في متاهة الظلام ..

و ألا نقول :

لقد مللت من كل شيء من حولي ، و سأجرب أشياء أخرى في الحياة .. فلا شك بأن هنالك عوالم من المتعة تنتظرني ..

بل أن نقول :

لقد خلقنا الله في الجنة منذ أبصرنا نور الحياة أطفالاً ، و لا ينتظرنا خارجها سوى الظلام و الجحيم الذين لا طائل منهما .. فاقنع بجنتك و نعم الله الهائلة و تمتع بها .. و اتعظ بتجربة أبيك آدم و أمك حواء ، عندما ضجرا من متع الجنة التي خلقهم الله فيها فقررا التمرد و العصيان على توجيهاته و خالفا أمره ، ليفقدا كل شيء و يدخلا النفق المظلم بدورهما ..

بلونين فقط رسم الله لوحته المذهلة (الدنيا) كلها فجعلها بنصفين : (أبيض و أسود) ، و بنفس اللونين رسم خوارزمية بناء الإنسان من خلال مغامرة مثيرة من ثلاثة مراحل : أبيض ، أسود ثم أبيض مجدداً .. بحيث يرى الإنسان أحد نصفي الحياة تبعاً للونه الداخلي .. و بهذين اللونين أيضاً و من خلال خوارزمية الله تلك ، يصقل الله النور في داخل كل إنسان عبر المراحل الثالثة السابقة (صعود ثم هبوط ثم صعود مجدداً) التي تبدأ بتوديع الجنان و الارتماء في

أحضان الشيطان و تنتهي بعودة الإنسان إلى خالقه نقياً أبيض يتماهى مع بياض جنانه و يصبح مؤهلاً للعيش فيها ، يصون نعمها بأشفار العيون و يلتزم بتوجيهات خالقه برضا ، قناعة ، يقين و تسليم ..

لينطبق عليه بيت الشعر الأيقوني التالي :

نزعت عنك رداء كنت تلبسه

من التراب و عاد النور للنور

هذه هي عظة اليوم أبنائي الأعزاء .. حاولت فيها أن أجيب عن سؤال يدور كزوبعة في عقول كثيرين منكم .. كيف تسير حياتنا على هذه الأرض ؟ و لماذا وجد الظلام فيها ؟ ببساطة إنها تجربة عبور نفق ، تبدأ من الضوء ثم يسود ظلام دامس من الخطايا قبل أن يخرج الإنسان إلى النور بتوبة و غفران ..

شكرا لحضوركم و اصغائكم ..

دمتم بخير ..

و نلتقي في عظة جديدة ..

حين فرغ القس باتريك من عظته، عمّ الكنيسة سكونٌ لم يكن من جنس الصمت، بل من جنس الانكشاف. لم يكن الحضور مجرد مستمعين، بل شهودًا على انشقاق في الوجود، لحظة انفلق فيها الوهم عن جوهرٍ عارٍ... وفاحت رائحة الحقيقة من بين الشقوق. كان صوته قد انطفأ، لكن رجع صداه ما زال يهمس في الأذهان، كأن كل كلمة قيلت لم تُقل من فوق منبر، بل نُقشت مباشرة على جدران القلب.

خمسة، جلسوا متباعدين في الكنيسة، لكنهم كانوا متراصين في المعنى. كل واحد منهم شعر بأن القس لم يتحدث عن البشر، بل عنه شخصيًا. عن تلك اللحظة الأولى حين غادر الجنة، لا جنة السماء، بل جنة الفطرة، جنة الطهر الأول، حين اختار بإرادته أن يمدّ يده لثمار الحرام و يدخل نفق الخطايا المظلم .. لم يأتِ الشيطان حينها بسلاسل، بل بأمنيةٍ مغرية، وهمس رقيق، ورغبة كانت نائمة في أعماق النفس فاستيقظت.

وسمعوا، كأن كل منهم وحده في الكنيسة، أن السقوط لا يحدث دفعة واحدة، بل يتسرب كالماء في شقوق الروح، وأن من يغرق لا يصرخ فورًا، بل يضحك أولًا، ثم يدوّي داخله الصمت.

فهم **باولو** أن من باع الأرواح لا يمكنه أن يشتري الروح. وتذكر جسد كاتيا الراقد، بلا وعي، بلا عودة، بلا نَفَس ، وأدرك أن كل ما جمعه كان غبارًا، وأن الله لا يُقايَض.

و **سامنتا**، شعرت بأن العظة كانت شفرة فتحت بابًا قديمًا في صدرها. عرفت أن الشهرة كانت الجدار الذي فصلها عن نفسها، وأنها خرجت من جنتها حين باعت صوتها لغيرها، وجهها لغيرها، حتى لم تعد تعرف أي صورة لها حقيقية.

أما **مايكل**، فانكمش في نفسه كجنديٍ خسر معركة لم يفهم سببها إلا

الآن. أدرك أن غروره كان درعًا من كرتون، وأن الانهيار الذي ظنه نهاية العالم، كان بداية رجوعه إليه.

سينتيا، دفنت وجهها بين يديها. كانت العظة كالماء المالح يغسل جراحًا قديمة. كل خيبة، كل ليلة تظن أنها تملك نفسها فيها، كل تجاهل لصوت أمها الحنون يرجوها ألا تبيع جسدها فتخسر روحها ... عادت كأشباحٍ لتقف أمامها، لا لتنتقم، بل لتقول : لقد فهمتِ الآن.

و **فريد**، بكرسيه المتحرك، شعر وكأن القسّ يربّت على كتفه. لم يعد ذلك الجسد الذي يمتطي الموج، بل صار روحًا تحبو نحو الضوء، وعرف أنه هو، هو وحده من أغلق باب الجنة على نفسه، وسار نحو جحيمه مختاراً، باسماً.

ما إن انتهى القداس، حتى بدا الزمن مشلولًا، وكأن كل حركة خارجه صارت بطيئة عن قصد، لتتيح للقلوب أن تستوعب ما حدث داخلها. لم يتحركوا .. لم يتحدثوا .. بل جلسوا في صمتٍ كثيف، تتردّد في داخلهم كلمات القس : أن الإنسان لا يُطرد من الجنة، بل يخرج منها برغبته، ويتبع شيطان نفسه لا حين يُجبَر، بل حين يشتهي، ويغرق لا بفعل الموج، بل لأنه يطفو على كذبة.

كانوا يعرفون طعم الحضيض، لأنه مرّ بأفواههم جميعًا. لمسوه، سكنوه، وعاشوا فيه بزهوٍ ظنّوه مجدًا. ولكنهم الآن، على مقاعد الخشب، تحت قبة الكنيسة، في وهج البخور والصمت والنور... أدركوا أن الرجوع لا يتطلّب خارطة، بل فقط دمعة صدق.

لم تكن العظة وعظًا. بل كانت تفسيرًا لأسئلتهم المؤجلة، ومرآةً عاكسة لماضيهم، ومفتاحًا أخيرًا لبابٍ ظنوه مقفولًا إلى الأبد.
فاكتشفوا أن الله لا يغلق باب التوبة، بل الإنسان من يغلق بابه

الداخلي عن الله.

في تلك اللحظة، شعروا جميعًا بشيء واحد... أن الله لم ييأس منهم ، بل انتظرهم. أن السماء التي غضبت حينًا، كانت في الأصل تحترق شوقًا لعودتهم.

لم يطلبوا الغفران بعد، ولم ينطقوا بالتوبة. لكن قلوبهم فعلت. خفّت أوزانهم، كأن ثقل الخطايا انزاح فجأة، كأن أرواحهم استحمت أخيرًا بماء لا يُرى.

ومن بينهم، دون كلمة واحدة، وُلد عهدٌ صامت :

ألا ينكصوا علة أعقابهم ، أن لا يغادروا الجنة من جديد، أن يسلّموا زمام أنفسهم لله... بعد أن ضلّوا طويلاً خلف وهمٍ اسمه الحرية، فإذا بها عبودية للشيطان الذي تاجر بإمكانياتهم و صلاحياتهم ، وها هم اليوم... أحرار من قيوده .

ولادة جديدة

الحياة بطعم مختلف ..

كان المساء يسدل عباءته على المدينة كراهبٍ يطوي صلاته، والسماء لا تزال تعبق بصدى العظة... عظة عودة الابن الضال ، تلك التي لم تكن مجرد خطبة، بل طلقة نور شقت ظلمة العمر. خرج الخمسة من الكنيسة لا كما دخلوها، بل كمن يُبعث من موته الداخلي، من أعماقه المطمورة تحت رماد الكبرياء والرغبة والضلال.

توقف الزمن حين غادروا العتبة المقدسة، وكأن الأرض نفسها أعادت رسم خريطتهم. لا حوار، لا تخطيط. فقط نظرات ملأى بالدمع والرغبة في البدء، لا من الصفر، بل من نقطة ما بعد الغفران.

كانوا يشعرون أن حياتهم القديمة أصبحت بعيدة، ضبابية، لا طعم لها ولا معنى. قرروا، دون أن يتحدثوا، أن يعودوا إلى ذواتهم الأصلية، أن يبدّلوا كل شيء : مظهرهم، نوعية حياتهم، عاداتهم، دوافعهم، أرواحهم ذاتها. لقد قفزوا من قطارٍ مندفع كان يقودهم إلى الهلاك، فركعوا على تراب النعمة، وقالوا في أعماقهم : **من الآن فصاعدًا، نبدأ ..**

كانت تلك اللحظة إعلانًا داخليًا، خفيًا، لكنه أقوى من أي قسم. لم تعد الدنيا معركتهم، بل أنفسهم. لم يعد مجدهم في الصعود فوق رؤوس الآخرين، بل في النزول تواضعًا أمام نور الحق.

عند عتبة الفقد، وُلد **باولو** من جديد. لم تعد صورة كاتيا تفارقه، لا كذكرى حزينة، بل كمرآة تنظر إليه من عالمٍ آخر وتسأله : وماذا بعد ؟

عاد إلى مملكته المظلمة، لكنه لم يدخلها كالملك، بل كالغريب العائد ليرى الدمار. غرف التجارة السوداء، ممرات الأعضاء، المكاتب المغلقة التي تفوح منها رائحة الجريمة المحاكة تحت الضوء... كل ذلك بات غريبًا عنه. وكأن الظلال التي كان يتقن العيش فيها، باتت تخنقه.

جلس أمام رجاله، أولئك الذين طالما نادى بهم كجنود الطاعة، وقال دون خوف : انتهت الحرب.

لكنه لم يُعلن الهروب، بل الثورة. حوّل منظمته الإجرامية إلى شبكة خيرية، تمد يدها لا إلى القتلى، بل إلى الأحياء الذين كادت الأرواح تفرّ من أجسادهم.

أنشأ مصحّات مجانية، وعيادات لعلاج الفقراء، ومراكز لإيواء المشردين. صار المشرط أداة شفاء، لا اقتلاع. وصار باولو نفسه طبيبًا جديدًا... طبيبًا لا يبيع الأعضاء، بل يرمم الكرامة، يحيك بسمته في وجوه الأطفال، ويمشي بينهم بهالة من الخجل المقدّس.

لم يعد يحكم بالسلطة، بل بالرحمة. أصبح رجلًا يقدّس الحياة لأنه فقدها ذات يوم بين ذراعي ابنته... وتعلم من تلك الدمعة أن الإنسان لا يملك شيئًا سوى ما يقدّمه.

في جناح صغير من كنيسة باتريك، ارتسمت في الزوايا سكينة لا تشبه الأرض. كانت **سامنتا** هناك، بشعرها الذي قصّته بنفسها، مرتدية رداءً أبيض بسيطًا كأملٍ يُغسل من ماضيه، تنظر من النافذة إلى حديقة المطر وكأنها تودّع جدران الأضواء.

بعيدًا عن عدسات الكاميرات وصيحات الجمهور، وجدت نفسها للمرة الأولى. كانت تشبه طفلتها المفقودة في زحام الشهرة. أما **سينتيا**، فكانت تجلس على الأرض، تمسك مسبحة خشبية بأصابع

مرتعشة، وكأنها تستعيد إيقاع النفس البطيء بعد رقصةٍ مجنونة مع السراب.

كلتاهما، في صمت الممرات، وفي خلوة الشموع، وجدتا السلام. لا السلام الذي يُشترى، بل الذي يُمنح بعد خضوع صادق.

ترهّبتا لا فرارًا من الدنيا، بل عودة إلى الذات. أصبحتا تعيشان بين الصلوات والأناشيد والاعترافات. يساعدن الفتيات الصغيرات على الشفاء من تشوّه الحياة، يغسلن أقدام الموجوعات، ويهمسن في أذن كل تائهة : الحياة تبدأ عندما تسقط، لا عندما تصعد.

كأنهما فهمتا متأخرًا، أن الطهارة ليست في المظهر، بل في الاختيار. فاختارتا الله، ورضيت به وطنًا، بعد أن خذلهما كل وطنٍ آخر.

الكرسي المتحرك لم يكن قيدًا، بل منصة. ومع كل عجلة يديرها بيديه الضعيفتين، كانت الرسالة تمضي. **فريد** الذي عرف البحر وجنونه، صار الآن سفيرًا للتيه الذي أنقذ منه.

جعل من نفسه مبشّرًا... لا يصرخ، بل يروي. يتحدث إلى الشباب عن فخاخ السراب، عن ممالك السموم التي تُبنى على جماجم الطمأنينة. لم يكن يلوّح لهم بعقاب، بل يهمس لهم بحنان : اعرفوا النور قبل أن تتلمّسوه في العمى.

يتنقل بين المدن، بين الكنائس الصغيرة والمدارس، يحدثهم عن الخلاص الذي لا يُشترى، بل يُعاش، ويذرف الدموع في كل لقاء، لا ضعفًا، بل لأن الألم حين يُنطق يتحوّل إلى غفران.

لم يكن واعظًا تقليديًا، بل شاهدًا من جحيم الحياة، يقول لهم : أنا هناك كنت... وأنتم، ما زال الباب مفتوحًا.

وهكذا، أصبح فريد رسولًا... لا للكتب، بل للتجربة. جسده المتعب

كان كافيًا ليعلّم أن الهشاشة هي أقوى طريق إلى الله.

أما **مايكل**، فعاد إلى حجرته الأولى، تلك التي كانت تمتلئ بالحواسيب والخطط. لكن هذه المرة، لم يكن يخطط لمشروع يجني ملايين، بل لمنصةٍ تمسّ الحياة.

أسّس موقعًا إلكترونيًا، سماه اليد الخفية، منصة تجمع تبرعات من أثرياء العالم، لا لشراء أسهم، بل لزرع بذور. دعم بها الكنيسة، والملاجئ، والمدارس الفقيرة، والأمهات الوحيدات، والمسنين المنسيين.

أعاد تشغيل شبكة علاقاته، لكن لا ليتباهى بها، بل ليستثمرها في الضوء. أصبح صوته مقنعًا، لا لأنه مدرّب، بل لأنه صادق. تحول من متعجرف إلى خادم، ومن مهووس بالأرقام إلى عاشق للأثر.

كل يوم، كان يرى كيف تتحول الصدقات إلى حياة. كيف تضيء شمعة صغيرة غرفةً كاملة. وكيف ينجو إنسانٌ واحد، فيشعر مايكل وكأنه أنقذ الكون كله.. وبينه وبين نفسه، علم أن الربح الأكبر، هو أن تخرج من قبرك وأنت حيّ.

لم يكونوا قديسين، بل أناسًا سقطوا وجرّبوا الطين. لكنهم خرجوا منه لا برؤوس مرفوعة، بل بقلوب منحنية. وفي انحناءاتهم، رآهم الله... فابتسم ..

*****

خاتمة :

كان اللواء **إيميليو مولا** القائد العام لجيش الشمال إبان **الحرب الأهلية الإسبانية** ، و أثناء مؤتمر صحفي مع صحفيين أجانب، سئل اللواء أي الطوابير الأربعة التي يتكّون منها جيشه سيفتح

مدريد ؟ عندئذٍ رد اللواء مولا قائلاً : أنّ هذه ستكون مهمة الطابور الخامس ، في إشارة ضمنية إلى الجماعات الفرانكية الموالية للملكية التي كانت تعمل في الخفاء داخل مدريد أي أنه كما الشيطان راهن على سقوط عدوه من داخله و ليس على قوته الخارجية على كبرها !!

هذه الرواية المتواضعة دعوى للجميع أن علينا تمنيع أنفسنا من الداخل و القضاء على الطابور الخامس في ذواتنا (الشيطان) أولاً و قبل كل شيء لنلتفت بعدها إلى قوى الأعداء من حولنا فنحن كفلاء بأنفسنا و الله كفيل بهم ، و هذا ما وعد الله عباده الصالحين ، كما يقول البارئ في الذكر الحكيم :

(إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان)

فالشيطان سيحاول التسلل إلى حياتك كحصان طروادة ، و عليك ببساطة ألا تسمح له بذلك بأن تحصن نفسك من إغواءات مخمس الشيطان :

(السلطة ، المال ، الغريزة ، الشهرة و الشك)

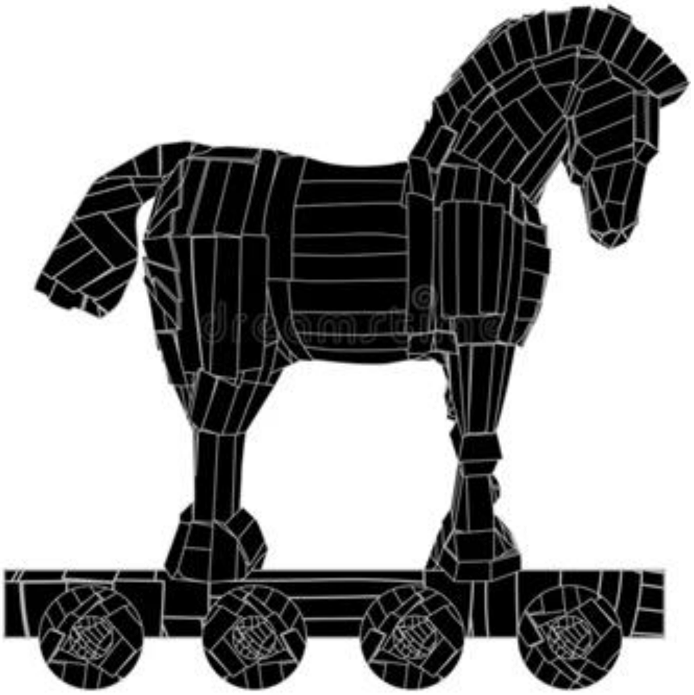

مخمس الشيطان ..

ملحق ثقافي ..

الشيطان في عالم الفن ..

منذ أن تعلّم الإنسان الرسم على جدران الكهوف، كان يبحث عن وجه للرهبة، عن صورة للرعب، عن تمثالٍ يجسّد العدوّ غير المرئي. والشيطان، أكثر من أي كائن آخر، كان الحضور الغائب، الذي راود الألوان، وراوغ الفُرَش، وتسلل إلى لوحات عباقرة الفن، لا كرمز للشر فقط، بل كمرآة لما يمكن للإنسان أن يصير عليه إن هو ابتلع الغواية.

ربما كانت أولى تجلّياته الكبرى في لوحة الرسام الفلمنكي **هيرونيموس بوش** :

حديقة الملذات الأرضية (**The Garden of Earthly Delights**) – ثلاثية مبهرة ترسم قصة البشرية من الجنة إلى الجحيم، حيث يحتشد الشيطان في الجهة اليمنى، وسط مشاهد فانتازية مروّعة. لا قرون، لا ذيل، بل بشرٌ أُفرغوا من نورهم فصاروا ظلّه. تلك الجهة، صمت الجحيم فيها لا يُسمع، بل يُرى، وفي قلبه أمير الظلام يراقب بانتصار.

ثم يأتي **غويا**، عاشق الليل وعفريت العقل. في لوحته السبت السحري (**Witches' Sabbath**)، يظهر الشيطان على هيئة جدي ضخم، يتوسط ساحراتٍ مبهوراتٍ بنظرته. هنا، لا قوة جسدية، بل فتنةٌ فكرية. غويا لا يرسم الشيطان كعدو خارجي، بل كفكرة داخلية تُغري الإنسان بخلاصٍ كاذب. صمته أبلغ من عويل

الجحيم.

النحت، ذلك الفن الذي يخلّد الزمن في الجماد، لم يقف صامتًا أمام فكرة الشيطان، بل نحته كما ينحت العارفُ ذنبه في قلبه. وربما أعظم تجلٍّ لذلك نجده في عمل النحات الفرنسي **جان جاك فوشيرون** :

لوسيفر (**Lucifer, 1833**) — تمثال يجسد الملاك الساقط، لحظة ما بعد الطرد من السماء. لا يُقدّم إبليس كوحش، بل كملاك محطم. عضلاته مشدودة، ظهره مقوّس، رأسه يقطر بالخزي، عيناه تحدّقان في الأرض كمن فقد السماء للأبد. لا نرى قرونًا، بل نرى الألم...

هذا هو الشيطان، لا كتجسيد للرعب، بل كأثرٍ من النور حين يُختطف منه.

ثم نُبصر عمل النحات البلجيكي **غيوم غيفار** :

السقوط من النعمة (**The Fall from Grace**) — مشهد ملائكي ينقلب فيه النور إلى دخان. الجسد البشري الذي كان مرآةً للخلود، يتحوّل إلى ساحة للخذلان. هنا، لا سلاسل تشد إبليس، بل نظرته الفارغة التي تشدّ المشاهد. النحات لا يدين، بل يعكس المأساة: كيف يسقط المرء حين يتوهّم أنه فوق الجميع.

في هذه التماثيل، لا شيطان بعينين حمراوين أو مخالب، بل كائن مأساوي، يشبهنا كثيرًا... حتى نخاف من التشابه.

في عالم الصوت، للشيطان لحنٌ لا يُنسى .

كانت البداية مع **نيكولو باغانيني**، عازف الكمان الإيطالي الذي سرت حوله الأساطير بأنه باع روحه للشيطان مقابل براعته.

مقطوعته الأشهر **كابريس رقم 24** تحمل في طيّاتها جنونًا وتحديًا وغواية لا تشبه غيرها. كل نغمة تقفز من أوتار الكمان كما لو أن يدًا غير بشرية تعزفها.

ثم تأتي مقطوعة **سوناتا الشيطان (Devil's Trill Sonata)** **لفيولينست الباروك جوزيبي تارتيني**. كتبها بعدما رأى الشيطان في حلم يعزف أمامه. قال : صحوتُ، وقلبي يحترق، وحاولت أن أدوّن ما سمعت... لكن عبثًا. ما كتبته كان شبحًا لما سمعته.

تلك المقطوعة ليست مجرد نغم، بل اختبارٌ للروح. تبدأ ببطء، ثم ترتفع تدريجيًا نحو الجنون، كما تفعل الخطيئة.

ولا يمكننا أن ننسى **فرانز ليزت**، وعمله **الرقص الملعون (Totentanz)**، أو **سوناتا دانتي** ، حيث تُستدعى الأرواح المظلمة إلى المسرح. في موسيقاه، لا يصرخ الشيطان، بل يهمس، يغوي، يتلوّى عبر المفاتيح، ويقود المستمع إلى حافة الرهبة.

في **جدارية القيامة الكبرى** في **كنيسة سيستينا**، رسم **ميكيل انجيلو** صورة الجحيم كما لم تُرَ من قبل. تتكدس الأجساد، تتعذّب، تتقوّس، وكأنها تتفجّر من الداخل. في ركن اللوحة، يطلّ شيطانٌ ضخم، عضلاته تشبه تماثيل الأبطال، لكن ملامحه تنهش القلب. ليس لأنه بشع... بل لأنه بشريّ جدًا.

أما في الأدب الذي ألهم الفنّانين، فتأتي **الكوميديا الإلهية لدانتي**، حيث يُصوّر إبليس ككائنٍ جليدي، مُجمّد في قاع الجحيم. ليس

مشتعلاً، بل متجمّدًا، عاجزًا، أسيرًا لحقده الأبدي. وهذا التصوير البارد للشيطان ألهم فنانين كُثُر لرسمه لا كوحش يزأر، بل كملك ميت على عرش من الجليد... دليل أن الغواية، في حقيقتها، تصل بصاحبها إلى الجمود الروحي.

وفي القرن العشرين، حين اندمج الفن بالسريالية، ظهر الشيطان في أعمال **سلفادور دالي**، لا كشخص، بل كحالة. في لوحة **التجربة الشيطانية** ، تتطاير الأجساد، تنصهر، تتحوّل إلى مفاتيح مكسورة، وساعات ذائبة. لا جحيم واضح، بل عالمٌ ضبابي تشكّ فيه حتى في نفسك. وهنا، يصبح الشيطان فكرةً: الغرور، والضياع، والشك.

لماذا يعيد الفنّانون خلق الشيطان مرارًا؟

لأنه أكثر من شخصية.

إنه ظلّ الإنسان على جدار الروح. إنك إن اقتربت من ذاتك في عمقٍ كافٍ، وجدت داخلك مساحة تشبهه... مساحة القلق، والتحدي، والتمرّد، والاغترار.

الشيطان في الفنّ ليس كائنًا مرفوضًا بالكامل، بل كائنٌ مفهوم، محذّر منه. إنّه صوت الخيار الآخر، الصوت الذي يقول "لا" حين يُطلب منك أن تطيع، الصوت الذي يهمس بالخلاص المزيّف.

لكن الفن، مهما اقترب من الشيطان، لا يخضع له. بل يكشفه، يعرّيه، ويقدّمه لنا كما هو : خاسرٌ يتفنن في الإغواء، لكنه لا يملك الخاتمة.

إن لوحات **بوش**، وتماثيل **فوشيرون**، ونغمات **تارتيني**، ليست احتفاءً بالشيطان، بل تحذيرٌ من فتنة صورته. إنها تقول لنا :

(إن لم تعرف عدوّك، لن تعرف كيف ترفضه.)

ولهذا، يبقى الشيطان موضوعًا خالدًا في الفن... لأنه يعكس هشاشتنا نحن، ولأن في رسمه، عزاءٌ لأولئك الذين عرفوا يومًا غوايته... ثم نجاهم الله منها.

مخمس الشيطان ..

محتوى الكتاب :

- لن أسجد لآدم ..
- كش مات ؟ ..
- مخمس الشيطان ..
- رجل الدمى ..
- الشهرة : بوابة إلى الجحيم ..
- تاج النرجس ..
- جسد للإيجار ..
- مخدر الضمير ..
- مهام الماجوس ..
- عظات في وجه العاصفة ..
- عندما يقلب الملاك الرقعة..
- تغيير البوصلة ..
- ولادة جديدة ..